دراسات نقدية

٥

جمال الدين الأفغاني

رسالة الرد على الدهريين

ترجمة: محمد عبده

تحقيق: أحمد ماجد





رسالة
الرد على الدهريين

رسالة
الرد على الدهريين

السيد جمال الدين الأفغاني

ترجمة

الشيخ محمد عبده

تحقيق

الدكتور أحمد ماجد

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-088-3

[٢٠١٧م - ١٤٣٨هـ]



العنوان: لبنان - بيروت - سان تيريز - سنتر يحفوفي - بلوك c - ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - email: almaaref@shurouk.org



تصميم:

زينب ن ترمس

إخراج فني

إبراهيم شحوري

طباعة

DB UK 00961 3 336218

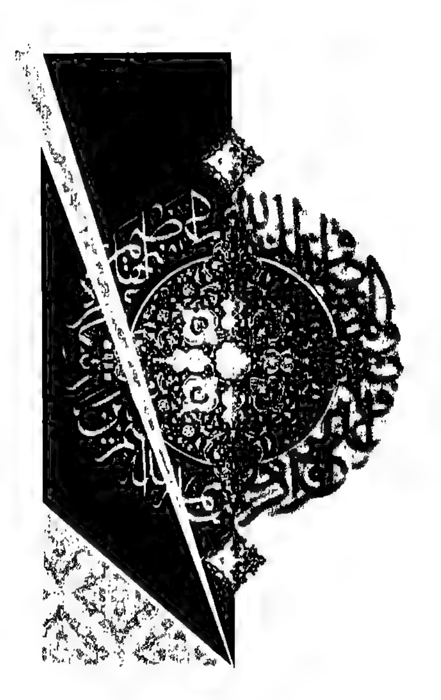
شركة دبوق العالمية للطباعة والتجارة العامة ش.م.م.

info@dboukart.com


بسم الله الرحمن الرحيم



الفهرس



مقدمة المحقق

هذا الكتاب تحقيق لرسالة الـردّ على الدهريين لجمال الدين الأفغاني، وهو من الكتب المهمّة، التي صدرت في نهاية القرن التاسع حين أخذت الدول الاستعمارية الكبرى ببثّ الأفكار الداعية إلى تغيير نمط الحياة في العالم الإسلاميّ، وتبنّي المقولات الغربيّة حول الثقافة والسياسة والاقتصاد والاجتماع، وقد اتكأت في ذلك على مجموعة من المقولات التي تشكّك الإنسان في قدرة الدين على الإجابة عن الأسئلة التي ينتجها العلم، فانبرى هذا الفيلسوف الإسلاميّ الكبير للردّ عليها وتهفيت محتواها، مظهرًا أنّ ما يساق لا يتعدّى كونه كلامًا في السياسة تملق الفكر واستخدمه من أجل تحقيق أهداف أخرى.

وإن كان بعض الدارسين، حاول أن يثير الشكوك حول محتوى هذا الكتاب، مرة من خلال إظهار عدم دقة المعلومات التي وردت فيه، خاصة فيما يتعلق بالمدارس الفلسفية والعلاقة بين «أبيقور» والمدرسة «الكلبية»، أو من خلال إظهار أنّ ما قدّمه الأفغاني من رؤى للاتجاهات الفكريّة لا ينطبق عليها تمام الانطباق، ومرة أخرى من خلال الحديث عن عدم دقّة ما نقله عن نظرية «داروين» في أصل الأنواع. فهؤلاء لم يتنبهوا إلى أنّ ما طرحه الأفغاني في هذا الكتاب لم يكن عملًا معرفيًا بحثيًا صافيًا، يقتضي من صاحبه المتابعة التدقيقيّة لموارد الشواهد، إنّما هو عمل سعى من خلاله إلى تحفيز العقول للتنبه إلى وجود خطر داهم، يعمل على تدمير ذاتية الأمة، ليحولها إلى أمة تابعة.

فهذه الرسالة على قصرها، تشكل عملًا إبداعيًا، سعى من خلاله الأفغاني إلى تحقيق جملة من الأهداف، تتمثل:



١- إظهار أن عملية التقدم لا تتمّ إلا من خلال الرؤية الخاصة للأمة المنتجة لها، بالتالي، لا يمكن لأمة أن تستورد عناصر نهضتها من الآخرين، وذلك انطلاقًا من اختلاف النماذج الحضارية.

٢- يجب التفريق بين المعطى العلمي والسياسي، فما يُطرح تحت شعار العلم، لا يتعدّى كونه كلامًا في السياسة.

٣- لا تُقرأ المنظومات الفكرية والثقافية من خارجها، فهذه القراءة قد تكون مدمّرة، لذلك لا بد من العمل عليها من داخلها، دون الانغلاق على القادم، شرط أن لا يتحول إلى كلام شعبويّ.

٤- التأكيد على عدم القدرة على فصل الدين عن الحياة، ومضار القيام بمثل هذا الأمر، لأنّه يتنافى مع الطبيعة الإنسانية.

يُضاف إلى هذه العناصر، التي أظهرها النص، أهمية مضافة لهذه الرسالة تتمثل في كونها رصد مبكر لعملية الغزو الثقافي، وما تحمله في طياتها من عملية تدمير ممنهجة لهوية الشعوب.

فهذه الرسالة، ليست عادية، بل يمكن القول إنّها استثنائية في محتواها، لأنّها ترصد الواقع وتحاوره، وترينا كيفية تفاعل مثقف ثوري ملتزم بقضايا أمته مع الأحداث التي تعترض سبيلها.



مداخل الكتاب

- أستاذي جمال الدين
- سيرة حياة الأفغاني
- تحليل خلفيات ومحتوى رسالة الرد على الدهريين



أستاذي جمال الدين[١]

بقلم الشيخ محمّد عبده

نور جديد: جرت سنة اللّه في خلقه أنّ عظائم الأمور تتولّد من صغارها، كما أنّ ضخام الأشجار تنبثق من بذورها..!

جاء إلى هذه الديار سنة ١٢٨٨هـ[٢] رجل بصير في الدين، عارف بأحوال الأمم، واسع الاطلاع، جمّ التعارف، جريء القلب واللسان. وهو المعروف بالسيّد جمال الدين الأفغاني.

اختار الإقامة في مصر، فتعرّف إليه في بادىء الأمر طائفة من طلبة العلم. ثم اختلف إليه كثير من الموظفين والأعيان. ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد، فكان ذلك داعيًا إلى رغبة الناس في الاجتماع به لتعرف ما عنده.

وكانت مدرسته بيته... فاشتغل بتدريس بعض العلوم العقلية. وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم. ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم.

---

(١) هذا النص لم يُثبت بالطبعة الأولى، ولكنّه وُضِع كمقدمة لكتاب محمد عبده **الثائر الإسلامي - جمال الدين الأفغاني**، الذي نشرته دار الهلال المصرية ضمن مجموعة كتاب الهلال، العدد ٢٧٤، اكتوبر ١٩٧٣، وقد أوردناه هنا، لما يشكله هذا النص من شهادة حياة من تلميذ بحقّ أستاذه.

(٢) هذه السنة توافق سنة ١٨٧١ م. وسيأتي في كلام الأستاذ الإمام أنّ جمال الدين الأفغاني نزل مصر في أول المحرم سنة ١٢٨٨هـ، وهذا التاريخ يوافق ٢٢ مارس ١٨٧١م. وقد سبق لجمال الدين أن نزل مصر لأول مرة في رمضان سنة ١٢٨٧هـ، الموافق سنة ١٨٧٠م. وذلك في طريقه من الهند إلى الحجاز. وأقام بها أربعين يومًا.



وهو في جميع أوقات اجتماعه بالناس، لا يسأم من الحديث فيما ينير العقل، ويطهر العقيدة، أو يذهب بالنفس إلى معالي الأمور، أو يلفت الفكر إلى النظر في الشؤون العامة، مما يمسّ مصلحة البلاد وسكانها!

وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام الإجازة.

وكان الزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ينشرونه في الناس.

فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول، وخفّ حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد، خصوصًا «القاهرة».

كلّ ذلك والحاكم القوي في علوّ مكانته، أرفع من أن ينتاه هذا الشعاع في ضعف شأنه..!

ولا زال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطيء، وينتشر في الأنحاء على غير نظام، إلى أن نشبت الحرب بين الدول العثمانية ودولة روسيا في سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م).

وجد الناس في أنفسهم لذة في الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية، صاحبة السيادة عليهم مع دولة روسيا، فتطلعوا إلى ما يرد من أخبار الحرب.

وقد سهلت كثرة الأجانب في البلاد وورود الجرائد الأوروبية إلى طلابها من الأوروبيين، ومهدت مخالطتهم للعامة والخاصة الطريق إلى العلم بما فيها، فزاد تشوق الناس إلى الوقوف على حوادث تلك الحرب.

وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية، التي كانت لا تزال إلى هذا العهد مقصورة على ما لا يهم، فانطلقت في إيراد الحوادث ونشرها.

وظهر فيها الميل إلى إطراء ما كانت تأتي به العساكر الروسية، وازدراء ما كان ينسب إلى الجنود العثمانية..!

فوجد في الناس الناقم على تلك الجرائد، والناصر لها..!

وحدث بين العامّة نوع من الجدال لم يكن معروفًا من قبل..

ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة سبقها في نشر الأخبار، ومناوراتها في المشرب.

واندفعت الرغبات إلى الاشتراك فيها إلى حدّ لا يمكن منعه. وقضى سلطان الوقت على سلطان الإرادة القاهرة..!

لم يكن ما ينشر في الجرائد محصورًا في حوادث الحرب، بل تجترأ الكثير منها على نشر ما عليه سائر الأمم في سيرتها السياسية والاجتماعية.

وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدا في الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية، وكثر المتحدثون بما يكثر في تلك الجرائد.

وأخذ الشيخ جمال الدين في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير، وإنشاء الفصول الأدبية والعلمية في موضوعات مختلفة، لا تخرج جامعتها عن إصلاح الأفكار، وتهذيب الأخلاق.

فتسابق إلى ذلك الكتاب، وتبارت الأقلام، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد إلى درجة يظن الناظر فيها أنه في عالم الخيال، أو أرض غير هذه الأرض..!

ومن يطاع على أعداد جريدة مصر، وجريدة التجارة، وجريدة مرآة الشرق والأهرام، وصداها يرى حقيقة ما ذكرنا...

أول لقائي بالسيد جمال الدين: أخبرني ذات يوم أحد زملائي المجاورين في «رواق الشوام» بالأزهر أنّه جاء «مصر» «عالم أفغاني عظيم». وهو يقيم في «خان الخليلي». فسررت بهذا الخبر. وأخبرت أستاذي «الشيخ حسن الطويل» وكان الشيخ ممتازًا في الأزهر بعلم المنطق، وحضرته، ولكنّه لم يشفِ نفسي. وكنت أتشوّق دائمًا إلى العلوم العقلية، فبحثت في خزائن الكتب الأزهرية، عن طلبتي، فظفرت ببعض الكتب، وعثرت على كتاب «شرح القطب على الشمسية» ناقصًا . وقرأ لنا الشيخ حسن الطويل شيئًا من الفلسفة، ولكنّه لم يكن يجزم في قراءته وتدريسه بما يقرره من المعنى وكثيرًا ما كان الدرس احتمالات وتخمينات.

فلما سمعت بمجيء السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر، دعوت الشيخ حسن الطويل لزيارته معي.



ذهبنا إليه في المساء، فألفيناه يتعشى. فسلمنا عليه وسلم علينا. ودعانا إلى الطعام. فاعتذرنا، وشكرنا...

وبعد أن تناول الطعام اتجه إلينا، وسألنا عن معنى بعض آيات من القرآن الكريم، وما قاله المفسرون والصوفية فيها، فآثرنا أن نستمع إليه.

فأخذ يفسرها أمامنا تفسيرًا ملأ قلبي إعجابًا وشغفني به حبًا، لأنّ التصوف والتفسير، هما «قرة عيني، ومفتاح السعادة»..!

قرأت عليه هذه الكتب: صاحبت «السيد» من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٨هـ، وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والفلسفية والكلامية. وأدعو الناس إلى حضور دروسه والتلقي منه.

وقد قرأت عليه كتاب «الزوراء» للدواني في التصوف، و«شرح القطب على الشمسية» و«المطالع» و«سلم العلوم» من كتب المنطق. وكتاب «الهداية» و«الإشارات» و«حكمة العين» و«حكمة الإشراق» من كتب الفلسفة.

و«عقائد الجلال الدواني» في التوحيد، و«التوضيح مع التلويح» في الأصول. و«تذكرة الطوسي» في الهيئة القديمة وغيره من كتب الهيئة الحديثة. وقد شجعني على كتابة المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية..!

وحرصت على حضور مجالسه ودروسه. ولكن مشايخ الأزهر وجمهور طلبته أخذوا يتقوّلون عليه وعلينا الأقاويل. ويزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يفضي إلى زعزعة العقائد الصحيحة. وقد يهوي بالنفس في ضلال يحرمها خير الدنيا والآخرة..!

فكنت إذا رجعت إلى بلدي عرضت ذلك على خال والدي درويش، فكان يقول لي:

_ إنّ اللّه هو العليم الحكيم، ولا علم يفوق علمه وحكمته، وأنّ أعدى أعداء العليم هو الجاهل، وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه. وما تقرب أحد إلى اللّه بأفضل من العلم والحكمة.

فلا شيء من العلم بممقوت عند اللّه، ولا شيء من الجهل بمحمود لديه، إلا ما يسميه بعض الناس علمًا. وليس في الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما، إذا قُصِدَ بتحصيلهما الإضرار بالناس..!



لم أهتمّ بالأقاويل: لم أهتم بتلك الأقاويل. وكنت ألازم «السيد» ملازمة ظله، وأحضر دروسه وناديه وأسامره. وكانت كلّها مجالس علم وحكمة وأدب ودين وسياسة..!

وكان «السيد جمال الدين» يلقي الحكمة لمريدها، وغير مريدها. ومن خواصه أنّه يجذب مخاطبه إلى ما يريد، وإن لم يكن من أهله، وكنت أحسده على ذلك ..

لأنّ حالة المجلي تؤثر في نفسي، فلا تتوجه للكلام إلا إذا رأيت له محلًا قابلًا واستعدادًا ظاهرًا.. وهكذا الكتابة..!



سيرة صاحب هذه الرسالة الشيخ جمال الدين الأفغاني[١]

بقلم الشيخ محمد عبده

يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس في أمره، وتباعد ما بينهم في معرفة حاله وتباين صوره في مخيلات اللاقفين لخبره[٢]، حتى كأنّه حقيقة كلية، تجلت في كلّ ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية، قامت لكلّ نظر بشكل يشاكله، والرجل في صفاء جوهره، وزكاء مخبره، لم يصبه وهم الواهمين، ولم يمسه حزر[٣] الخراصين[٤]، إنّا نذكر مجملًا من خبره، نرويه عن كمال الخبرة وطول العشرة.

هذا هو السيد «محمد جمال الدين» ابن «السيد صفتر» من بيت عظيم في

---

(١) هذه السيرة كتبها الشيخ محمد عبده في ترجمته لكتاب الرد على الدهريين، وقد أثبتناها هنا، وقد أُغفل اسم «محمد عبده»، ولكن النص ذاته، أُعيد نشره في مجلة الجامعة باسم الكاتب، العدد ٣، سنة ١٩٠٦ وتمّ التعليق على بعض النقاط التي تشكل مسار اختلاف بين الباحثين.

(٢) أثيرت مسألة جمال الدين وموطنه من قبل الإنكليز، ليوقعوا بين المسلمين، ويوسعوا الهوة عبر تحويل مشروع الجامعة الإسلامية التي نادى بها الأفغانيّ إلى مشروع شيعي غايته السيطرة على العالم الإسلاميّ، خاصة أنّ مواقف الأفغاني كانت مشكّكة بنواياهم، وتعمل على تعزيز روح المقاومة ضدهم، وهذا ما يعكسه قول مستر براون في كتابه عن الثورة الإيرانية بين ١٩٠٥–١٩٠٩: «إنّ جمال الدين أراد أن يعرف أنّه أفغاني، ليسهل حشره في زمرة السنيين من المسلمين».
Edward Granville Browne, The Persian revolution of 1905-1909, Cambridge University Press, 1910, p10.

(٣) قدَّره بالتَّخمين أو قدَّره بالحَدْس.

(٤) خرَّاص: كذَّاب، أفَّاك.



بلاد الأفغان[١]، يعود نسبه إلى «السيد علي الترمذي» المحدث المشهور[٢]، ويرتقي إلى سيدنا «الحسين بن علي بن أبي طالب [عَلَيْهِ السَّلَامُ]». وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم في خطة «كِنِر» من أعمال «كابل»، تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام، ولهذه العشيرة منزلة عليا في قلوب الأفغانيين، يجلّونها رعاية لحرمة نسبها الشريف.

وكانت لها سيادة على جزء من الأراضي الأفغانية، تستقلّ بالحكم فيه، وإنّما سلب الإمارة من أيديها «دوست محمد خان»[٣] جد الأمير الحالي[٤]، وأمر بنقل أبي السيد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة «كابل».

وُلِد السيد جمال الدين في قرية «أسعد آباد»[٥] من قرى «كِنِر» سنة ١٢٥٤

---

(١) أورد «علي شلش» عن رسالة دكتوراة لـ«هوما باكدمان» أنّ السيد «جمال الدين الأفغاني» إيراني الجنسية، والده السيد «صفدر» المزارع البسيط: «قضى سنواته الأولى في بيت الأسرة في حيّ صغير بمدينة أسد آباد، مع أمه «سكينة باجوم» وأخيه مسيح الله وأختيه طيبة (والدة ميرزا لطف الله) ومريم. وخلال تلك السنوات (١٢٥٤ -١٢٦٤ هـ/ ١٨٣٨- ١٨٤٨م) تعلم القرآن والنحو العربي قبل أن ينتقل به أبوه إلى قزوين وطهران للدراسة، حيث اتصل بالسيد صادق طباطبائي، أحد مشاهير علماء عصره، وقدم له الأخير أبا تراب الذي كان شقيقًا لبواب مدرسة تعلم فيها السيد صادق. ثم رحل أبوه إلى العراق ليكمل تعليمه في «النجف»، حيث درس القرآن والشريعة والمنطق والفلسفة والعلوم، وصاحب الشيخ أحد مشاهير علماء الشيعة في العراق [...] وقد خرج من العراق إلى الهند في سن السادسة عشرة -عام ١٨٥٤ ميلاديًا عن طريق إيران ثم قام برحلات إلى الحجاز فالعراق فإيران مرة أخرى حتى انتهى به المطاف إلى أفغانستان عن طريق إيران فوصل مدينة هراة في سبتمبر ١٨٦٦ ميلاديًا» (علي شلش، **جمال الدين الأفغاني- بين دارسيه** (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٧)، الصفحتان ١١٤-١١٥).

(٢) لم يوافق العديد من الباحثين على أنّ علي الترمذي هو المحدث المشهور، واعتبروا أنّ المقصود هو علي الترمذي المرشد الكبير المعروف بـ«بير بابا»، هذه الكلمة التي لا تستعمل إلا للمرشد الكبير، توفي في سنة ٩٩١ هجريًا، ودُفِنَ بمنطقة «بنير» في ولاية «سوات» الباكستانية، وقبره مزار وملجأ إلى اليوم. (فضل معبود، **جمال الدين الأفغاني**، رسالة دكتوراه غير منشورة في جامعة بيشاور، ١٩٨٠، الصفحة ٨٣).

(٣) كان وزير في الدولة الدرانية وصل إلى كرسي الإمارة سنة ١٨٢٦ ميلاديًا. حارب البريطانيين في حرب الأفغان الأولى (١٨٣٩-١٨٤٢ ميلاديًا)، وهُزِم وفرّ إلى الهند، ثم عاد إلى بلاده، واسترجع عرشه بممالأة البريطانيين، ووصل إلى اتفاق معهم ١٨٥٥ ميلاديًا.

(٤) يعني به الأمير عبد الرحمن لأنّ الترجمة كُتبت وهو حي.

(٥) تورد بعض المصادر أنّ السيّد جمال الدين وُلِد في شعبان سنة ١٢٥٤ هجريًا في أسد آبادي من =



هجرية[١]، انتقل بانتقال أبيه إلى مدينة «كابل»[٢]، في السنة الثامنة من عمره أُجلِس للتعلمّ، وعني والده بتربيته، فأيّد العناية به قوة في فطرته وإشراق في قريحته وذكاء في مدركاته، فأخذ من بدايات العلوم، ولم يقف دون نهاياتها.

تلقى علومًا جمة برع في جميعها فمنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وتاريخ عام وخاص. ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف، ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية، وحكمة نظرية طبيعية وإلهية، ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك، ومنها نظريات الطب والتشريح.

أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد، وعلى ما في الكتب الإسلامية المشهورة، واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من سنّه، ثُمّ عرض له سفر إلى البلاد الهندية، فأقام بها سنة وبضعة أشهر، ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الأوروبية الجديدة.

وأتى بعد ذلك إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج، وطالت مدة سفره نحو سنة، وهو ينتقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر، حتى وافى «مكة المكرمة» في سنة ١٢٧٣[٣]. فوقف على كثير من عادات الأمم التي مرّ بها في سياحته، واكتنه

توابع همدان وهي مدينة معروفة في إيران وتوفيَ في شوّال سنة ١٣١٤ هجريًا في إستانبول. (السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة (بيروت: دار التعارف، ١٤٠٣ هجرية/ ١٩٨٣ ميلادية)، الجزء ٤، الصفحة ٢٠٦).

(١) المطابق لعام ١٨٣٩ ميلاديًا.

(٢) يطلق عليها بالعربية «كابول»، وهي عاصمة جمهورية أفغانستان الإسلامية وأكبر مدنها والمركز الثقافي والاقتصادي للبلاد. تقع على ضفاف نهر كابل. تحيط بها سلسلة جبال «هندوكوش» على ارتفاع ١٨٠٠ مترًا فوق سطح البحر.

(٣) الموافق لعام ١٨٥٦ ميلاديًا.

تقول بعض المصادر إنّ «الأفغاني» في هذه المرحلة، اكتشف أهمية الحجّ حيث تجتمع الألوف العديدة من مسلمي الأقطار كافة، فوجد بثاقب بصره أنّ هذه المناسبة، تمثل أكبر مؤتمر دينيّ، يجتمع فيه المسلمون، فلم يبرح بلاد الحجاز قبل أن يضع لدعوته غرسًا طيبًا، وينقلها إلى طورها العملي بإنشاء جمعية، يمثل فيها كلًا قطر إسلاميّ تسمى «أم القرى»، كانت أشبه ببرلمان إسلاميّ =



أخلاقهم وأصاب من ذلك فوائد غزيرة، ثم رجع بعد أداء الفريضة إلى بلاده، ودخل في سلك رجال الحكومة على عهد الأمير «دوست محمد خان».

ولما زحف الأمير إلى «هـراة»[١]، [ليفتحها][٢] ويملكها على سلطان «أحمد شاه» صهره وابن عمه، سار السيّد جمال الدين معه في جيشه، ولازمه مدة الحصار إلى أن تُوفي الأمير، وفُتِحَت المدينة بعد معاناة الحصار زمنًا طويلًا. وتقلد الإمارة ولي عهدها «شير علي خان»[٣] سنة ١٢٨٠[٤]، وأشار عليه وزيره «محمد رفيق خان» أن يقبض على أخوته خصوصًا من هو أكبر سنًا منه، ويعتقلهم فإن لم يفعل سعوا بالناس إلى الفتنة، وألّبوهم للفساد طلبًا للاستبداد بالإمارة.

[الوزير الأول جمال الدين]

وكـان في جيش «هـراة» من أخـوة الأمير ثلاثة «محمد أعظم» و«محمد أسلم» و«محمد أمين»، وهوى الشيخ «جمال الدين» كان مع «محمد أعظم»، فلمّا أحسّوا بتدبير الأمير ومشورة الوزير أسرعوا إلى الفرار، وتفرَّقوا إلى الولايات، كلّ منهم ذهب إلى ولايته، التي كان يليها من قبل أبيه ليعتصم بمنعته فيها، وطاشت بهم الفتن، واشتعلت نيران الحروب الداخلية. وبعد مجالدات عنيفة، عظُم أمر «محمد

= كبير، وقد أصدرت الجمعية مجلة باسمها، وقد كان لهذه الجمعية فيما بعد نشطاء، وكانت أول قنبلة، يضعها «جمال الدين في وجه بلاد الغرب الجشعة» (محمد سلام مذكور، **جمال الدين الأفغاني – باعث النهضة الشرقية –** (القاهرة: دون ناشر، ١٩٣٧)، الصفحة ٣١).

(١) ولاية هرات وهري (بالبشتو والفارسية) من إحدى المحافظات الـ ٣٤ بأفغانستان تقع غربي البلاد قرب الحدود الإيرانية، يمرّ فيها نهر هريرود والذي يتدفق من وسط البلد، تحدّها بادغيس شمالًا وفراه جنوبًا وغور شرقًا وإيران غربًا.

(٢) هذه كلمة لا توجد في الطبعة الأولى، وقد وردت في نسخة دار الهلال.

(٣) هو شير علي ابن دوست محمد خان تولى أمارة أفغانستان مرتين، مرة بعد وفاة والده دوست محمد خان حيث استولى أخوه محمد أفضل خان على السلطة بعد ثلاث سنوات، ولكن شير علي خان استعاده مرة اخرى .تحول عن صداقته للبريطانيين وأنشأ علاقات ودية مع روسية، ممّا أدى إلى الحرب الإنكليزية الأفغانية الثانية (١٨٨٠ –١٨٧٨) هُزم شير علي من قبل بريطانيا، ولاذ بالفرار ومات في المنفى.

(٤) الموافق لعام ١٨٦٣ ميلاديًا.



أعظم» وابن أخيه «عبد الرحمن» (الأمير السابق)، وتغلّبا على عاصمة المملكة، وأنقذا «محمد أفضل» والد «عبد الرحمن» من سجن «قزنة»[1] وسمياه أميرًا على أفغانستان، ثم أدركه الموت بعد سنة، وقام على الإمارة بعده شقيقه «محمد أعظم خان»، وارتفعت منزلة «جمال الدين» عنده، فأحلّه محلّ الوزير الأول، وعظُمت ثقته به، فكان يلجأ لرأيه في العظائم وما دونها[2]، وما دونها على خلاف ما تعود أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكومتهم.

وكادت تخلص حكومة الأفغان لـ «محمد أعظم» بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الأمير بالأغلب من ذوي قرابته، مما حمله على تفويض مهمات من الأعمال إلى أبنائه الأحداث[3]، وهم خلو من التجربة عراة في الحنكة، فساق الطيش أحدهم، وكان حاكمًا في «قندهار» على منازلة عمه «شير علي» في «هراة»، ولم يكن له من الملك سواها، وظنّ الفتى أنّه يظفر فينال عند أبيه حظوة، فيرفعه على سائر أخوته.

فلما تلاقى مع جيش عمه، دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه في مئتي جندي، واخترق بها صفوف أعدائه، فأوقع الرعب في قلوبهم، وكادوا ينهزمون لولا أن التفت «يعقوب خان» قائد «شير علي»، فوجد ذلك الغرّ المتهور منقطعًا عن جيشه، فكرّ عليه، وأخذه أسيرًا، فتشتت جند «قندهار»، وقوي الأمل عند «شير علي».. فحمل على «قندهار»، واستولى عليها، وعادت الحرب إلى شبابها، وعضد الإنكليز «شير علي»، وبذلوا له قناطير من الذهب، ففرّقها في الرؤساء والعاملين لـ «محمد أعظم»، فبيعت أمانات، ونُقضت عهود، وجُددت خيانات.

---

(١) المقصود «غزنة»، كما تلفظ بالعربية.

(٢) على خلاف ما تعوده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق، وعدم التعويل على رجال حكومتهم. (التعليق لمحمد عبده).

(٣) نجح جمال الدين الأفغاني وسلامة نصائحه لـ «محمد أعظم»، أدت إلى تقليص دور الإنكليز وحدة من تدخلهم، مما دفعت الأخيرين للسعي من أجل عزله، فحركت جواسيسها، وأثارت الفتن، حتى همشت دوره. (فضل معبود، **جمال الدين الأفغاني**، مصدر سابق، الصفحة ٩٩).

[هجرته عن الأفغان]

وبعد حروب هائلة، تغلب «شير علي» وانهزم «محمد أعظم» وابن أخيه «عبد الرحمن»، فذهب «عبد الرحمن» إلى «بخارى»[١] (وعاد إلى بلاده رحمه اللّه)، وذهب «محمد أعظم» إلى بلاد إيران، ومات بعد أشهر في مدينة «نيسابور»[٢]، وبقي السيد جمال الدين في «كابل»، لم يمسه الأمير بسوء احترامًا لعشيرته، وخوف انتفاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوي، إلا أنّه، لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به، والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله، ولهذا رأى السيد «جمال الدين» خيرًا له أن يفارق بلاد الأفغان، فاستأذن للحجّ فأُذِن له على شرط أن لا يمرّ ببلاد إيران، كيلا يلتقي فيها بـ «محمد أعظم»، وكان لم يمت، فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥[٣] بعد هزيمة «محمد أعظم» بثلاثة أشهر[٤].

فلما وصل إلى التخوم الهندية، تلقته حكومة الهند بحفاوة في إجلال إلا أنّها لم تسمح له بطول الإقامة في بلادها، ولم تأذن للعلماء في الاجتماع عليه إلا على عين من رجالها، فلم يقم أكثر من شهر[٥]، ثم سيّرته من سواحل الهند في أحد

---

(١) تقع بخارى في أوزبكستان على طريق الحرير، واتسمت بأنها مركز تجاري هام بالإضافة لكونها مركز للدراسة والثقافة وعلوم الدين.

(٢) نَيْسَابُور أو نِيْسَابُور (بالفارسية: نيشابور) مدينة في مقاطعة خراسان شمالي شرق إيران قرب العاصمة الإقليمية مشهد. كانت نيسابور عاصمة لمقاطعة خراسان قديمًا، وتعدّ من أشهر مراكز الثقافة والتجارة والعمران في العصر العباسي قبل أن يدمرها زلزال ضربها عام ٥٤٠هـ (١١٤٥م)، ثم أكمل خرابها غزو المغول لها سنة ٦١٨هـ (١٢٢١م).

(٣) الموافق لعام ١٨٦٩ ميلاديًا.

(٤) وقبل وفادته إلى الهند، قام جمال الدين بالإصلاحات التالية: أصدر أول جريدة في أفغانستان باسم شمس النهار، كانت توزع في البلاد وخارجها. نظم الديوان ومكاتب الحكومة. نسق الجيش تنسيقًا جديدًا مبنيًا على أصول حديثة. أنشأ إدارات رسمية. وضع أسس مباديء النهضة العلمية. نظم البريد. أنشأ المستشفيات لعامة الناس. أنشأ مدينة جديدة باسم «شيربور». نظم العلاقات مع الدول الخارجية. (مضامين جمال الدين، الصفحتان ١٣ و ١٤).

(٥) كان الأفغاني يريد أن يقيم في منزل أحد أصحابه من التجار، ولكن الحكومة الهندية آثرت أن تضعه في نزل أحاطته بالعملاء والجواسيس.



مراكبها على نفقتها إلى السويس، فجاء إلى مصر، وأقام نحو أربعين يومًا[١]، تردد فيها على الجامع الأزهر، وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين، ومالوا إليه كلّ الميل، وسألوه أن يقرأ لهم شرح الإظهار، فقرأ لهم بعضًا منه في بيته، ثم تحوّل عن الحجاز عزمه، وتعجّل بالسفر إلى الآستانة.

[جمال الدين في الآستانة]

وصل الآستانة، وبعد أيام من وصوله أمكنه ملاقاة الصدر الأعظم «عالي باشا»، ونزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله، وأقبل عليه بمالم يسبق لمثله، وهو مع ذلك بزيّه الأفغاني: قباء وكساء وعمامة عجراء، وحومت عليه لفضله قلوب الأمراء والوزراء، وعلا ذكره بينهم، وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وأدبه، وهو غريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم.

وبعد ستة أشهر، سُمّي عضوًا في مجلس المعارف، فأدّى حقّ الاستقامة في آرائه، وأشار إلى طرق لتعميم المعارف،لم يوافقه على الذهاب إليها رفقاؤه. ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه قلب شيخ الإسلام لتلك الأوقات «حسن فهمي أفندي»، لأنّها كانت تمسّ شيئًا من رزقه، فأرصد له العنت حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧[٢]، فرغب إليه مدير دار الفنون «تحسين أفندي» أن يلقي خطابًا للحثّ على الصناعات، فاعتذر إليه بضعفه في اللغة التركية، فألحّ عليه «تحسين أفندي»، فأنشأ خطابًا طويلًا، كتبه قبل إلقائه وعرضه على وزير المعارف، وكان «صفوت باشا»، و«علي شيرواني زادة» ومسير الضابطية و«علي دولتلو منيف باشا» ناظر المعارف، وكان عضوًا في مجلس المعارف، واستحسنه كلٌّ منهم، وأطنب في مدحته.

---

(١) في هذه الفترة بدأت علاقة جمال الدين الأفغاني بتلميذه محمد عبده صاحب هذه الترجمة، يقول عبده: «أخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمة الفلسفية... جعلت أدعوا الناس إلى التلقي عنه وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل، بل ويزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يفضي إلى زعزعة العقائد... فلما أحس جمال الدين العداوة من بعض شيوخ الأزهر، آثر أن يدعهم، فترك لهم القاهرة والقطر المصري، واتجه إلى تركيا». (مضامين جمال الدين، الصفحتان ١٣ و ١٤).

(٢) الموافق لعام ١٨٧٠ميلاديًا.



فلما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب تسارع الناس إلى دار الفنون، واحتفل له جمٌّ غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأرباب الجرائد، وحضر في الجمع معظم الوزراء.

وصعد «السيد جمال الدين» على منبر الخطابة، وألقى ما كان أعدّه، وأرسل «حسن فهمي أفندي» أشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة للتمثيل به. وما كان يجدها لو طلب حقًا، ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الإنسانية ببدن حيّ، وأنّ كلّ صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن، تؤدي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه العضو في البدن... فشبه الملك مثلًا بالمخ، الذي هو مركز التدبير والإرادة، والحدادة بالعضد، والزراعة بالكبد، والملاحة بالرجلين، ومضى في سائر الصناعات والأعضاء حتى أتى على بيانها جميعها ببيان ضافٍ وافٍ، ثم قال: «هذا ما يتألف منه جسم السعادة الإنسانية، ولا حياة لجسم إلا بروح، وروح هذا الجسم إما النبوة وإما الحكمة، ولكن يفرق بينهما بأنّ النبوة منحة إلهية، لا تنالها يد الكاسب، يختص اللّه بها من يشاء من عباده، واللّه أعلم حيث يجعل رسالته. أما الحكمة فمما يُكتسب بالفكر والنظر في المعلومات، وبأنّ النبيّ معصوم من الخطأ، والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه. وإنّ أحكام النبوات آتية على ما في علم اللّه لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فالأخذ بها من فروض الإيمان. أما آراء الحكماء، فليس على الذمم فرض اتباعها إلا من باب ما هو الأولى والأفضل على شريطة أن لا تخالف الشرع الإلهي».

هذا ما ذكره متعلقًا بالنبوة، وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الإسلامية، إلا أنّ «حسن فهمي أفندي» أقام من الحق باطلًا ليُصيب غرضه من الانتقام، فأشاع أنّ الشيخ «جمال الدين» زعم أنّ النبوة صنعة، واحتجّ لتثبيت الإشاعة بأنّه ذكر النبوة في خطاب يتعلق بالصناعة – وهكذا تكون حجج طلاب العنت – ثم أوعز إلى الوعاظ في المساجد أن يذكروا ذلك محفوفًا بالتفنيد والتنديد، فاهتم السيد «جمال الدين» للمدافعة عن نفسه، وإثبات براءته مما رُمي به.

ورأى أنّ ذلك لا يكون إلا بمحاكمة شيخ الإسلام – وكيف يكون ذلك؟– واشتدّ في طلب المحاكمة، وأخذت منه الحدة مبلغها، وأكثرت الجرائد من القول في المسألة، فمنها نصراء للشيخ «جمال الدين» ومنها أعوان لشيخ الإسلام، فأشار



بعض أصحاب السيد عليه أن يلزم السكون، ويغضي على الكريهة، وطول الزمان يتكفل باضمحلال الإشاعات وضعف أثرها، فلم يقبل ولجّ في طلب المخاصمة، فعظُم الأمر وآل إلى صدور أمر الصدارة إليه بالجلاء عن الآستانة بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر، ويهدأ الاضطراب ثم يعود إن شاء، ففارق الآستانة مظلومًا في حقه مغلوبًا لحدته.

[جمال الدين في مصر]

فارق الآستانة فحمله بعض من كان معه على التحول إلى مصر، فجاء إليها في أول محرم سنة ١٢٨٨[١]، وهذا مجمل أمره في الآستانة، وما ذكره «سليم العنحوري» في شرح شعره المسمى «سحر هاروت» مما يخالف ذلك خلط لا شائبة للحق في.

مال السيد «جمال الدين»[٢] إلى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها، ولم تكن له عزيمة على الإقامة بها، حتى لاقى صاحب الدولة «مصطفى رياض باشا» فاستمالته مساعيه إلى المقام، وأجرت عليه الحكومة وظيفة «ألف قرش مصري» كل شهر نزلًا أكرمته به لا في مقابلة عمل.

واهتدى إليه بعد الإقامة كثير من طلبة العلم، واستوروا زنده فأورى، واستفاضوا بحره ففاض درًا، وحملوه على تدريس الكتب، فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية طبيعية وعقلية وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الإسلاميّ.

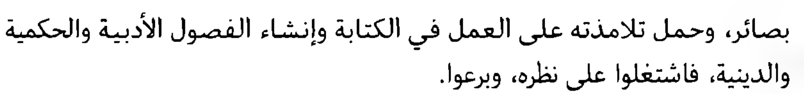
وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم، ولم يذهب إلى الأزهر مدرسًا يومًا واحدًا، نعم كان يذهب إليه زائرًا وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة..!

عَظُم أمر الرجل في نفوس طلاب العلوم، واستجزلوا فوائد الأُخذ عنه، وأعجبوا بدينه وأدبه وانطلقت الألسن بالثناء عليه، وانتشر صيته في الديار المصرية، ثم وجه عنايته لحلّ عقل الأوهام عن قوائم العقول، فنشطت لذلك ألباب، واستضاءت

---

(١) الموافق ٢٢ مارس ١٨٧١م.

(٢) يقول محمد مدكور وسعيد الأفغاني إنّ جمال الدين مال إلى الحجاز للإقامة فيها، ولكن الجو لم يلائم صحته، فغادرها إلى مصر. (فضل معبود، **جمال الدين الأفغاني**، مصدر سابق، الصفحة ٩٤.)



بصائر، وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وإنشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية، فاشتغلوا على نظره، وبرعوا.

وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه، وكان أرباب القلم في الديار المصرية القادرون على الإجادة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل، وما كنا نعرف منهم إلا «عبد اللّه باشا فكري» و«خيري باشا» و«محمد باشا سيد أحمد» على ضعف فيه و«مصطفى باشا وهبي» على اختصاص فيه. ومن عدا هؤلاء، فإما ساجعون في المراسلات الخاصة، وإما مصنفون في بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها. ومن عشر سنوات، ترى كتبة في القطر المصري، لا يشقّ غبارهم ولا يوطأ مضمارهم، وأغلبهم أحداث في السن شيوخ في الصناعة، وما منهم إلا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلّد المتصلين به، ومنكر ذلك مكابر، وللحق مدابر.

هذا ما حسده عليه أقوام، واتخذوا سبيلًا للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية أخذًا بقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها، على أنّ القائلين بهذا القول لم يطلقوه بل قيدوه بضعفاء العقول فصار النظر خشية على عقائدهم من الزيغ.

أما الثابتون في إيمانهم، فلهم النظر في علوم الأولين والآخرين من موافقين لمذاهبهم أو مخالفين فلا يزيدهم ذلك إلا بصيرة في دينهم وقوة في يقينهم، ولنا في أئمة الملة الإسلامية ألف حجة، تقوم على ما نقول، ولكن تمكّن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأي هذا الرجل، وأذاعوا ذلك بين العامة، ثم أيدهم أخلاط من الناس من مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجلسه، فيسمعون ما لا يفهمون، ثم يحرفون في النقل عنه، ولا يشعرون، غير أنّ هذا كلّه لم يؤثر في مقام الرجل في نفوس العقلاء العارفين بحاله، ولم يزل شأنه في ارتفاع والقلوب عليه في اجتماع، إلى أن تولى خديوية مصر حضرة خديويها «محمد توفيق باشا»، وكان السيد من المؤيدين لمقاصده، الناشرين لمحامده إلا أنّ بعض المفسدين ومنهم «مستر فيفيان» قنصل إنكلترا الجنرال، سعى فيه لدى الجناب الخديوي، ونقل المفسد عنه، ما اللّه يعلم أنّه بريء منه، حتى غيّر قلب الخديوي عليه، فأصدر أمره بإخراجه من القطر



المصري هو وتابعه «أبو تراب»[١]، ففارق مصر إلى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦[٢]، وأقام بحيدر آباد الدكن وفيها كتب هذه الرسالة في نفي مذهب الدهريين.

ولما كانت الفتنة الأخيرة بمصر[٣]، دُعي من «حيدر آباد» إلى «كلكته»، وألزمته حكومة الهند بالإقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وفثأت الحرب الإنكليزية[٤]، ثُم أبيح له الذهاب إلى أيِّ بلد فاختار الذهاب إلى «أوروبا»[٥].

وأول مدينة أصعد إليها مدينة «لوندرة»[٦]، أقام بها أيامًا قلائل، ثم انتقل منها

---

(١) هناك تضارب حول هذه الشخصية، في حين يراها بعض الباحثين خادم أهدي للأفغاني، يرى محمد عبده أنه ابن أخت الأفغاني.

(٢) طرد جمال الدين الأفغاني من مصر، وتنقل الأخبار بأن السلطات المصرية اعتقلته يوم ٢٦ آب (أغسطس) ١٨٧٩ ميلاديًا هو وخادمه بينما كانا يتوجهان إلى منزلهما، ولم تسمح لهما حتى بأخذ ثيابهما، وحمل في عربة مقفلة إلى محطة سكة الحديد، ومنها نقل تحت مراقبة شديدة إلى السويس، وأنزل منها إلى باخرة أقلّته إلى الهند، وسارت به إلى بمباي (ميناء في الهند)، ولم تتورع الحكومة عن نشر بلاغ رسمي عن إدارة المطبوعات بتاريخ ٢٦ آب (أغسطس)سنة ١٨٧٩ ميلاديًا، ذكرت فيه نفي السيد بعبارة جارحة تقول: «قد استقرت الحكومة بأنّ هناك جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا رئيسها شخص يُدعى جمال الدين الأفغاني مطرود من بلاده ثم من الآستانة العليا لما ارتكبه من أمثال هذه المفسدة في ديارنا المصرية، فالتزمت هذه الحكومة الحازمة أن تتخذ الطرق اللازمة في قطع عرق الفساد فأبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية، ووجهته من طريق السويس إلى الأقطار الحجازية لإزالة هذا الفساد من هذه البلاد عبرة للمعتدين ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين». [محمود أبي ريّة، **جمال الدين الأفغاني** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦١)، الصفحة ٩٩].

(٣) يقصد بذلك ثور « أحمد عرابي».

(٤) في فترة حصر **جمال الدين الأفغاني** في مصر، قضى الإنكليز على ثورة أحمد عرابي، وأخضعت مصر بشكل كليّ لسياستها.

(٥) تورد بعض المصادر أنّ الأفغاني لم يغادر مباشرة إلى لندن ، ترك الهند ووصل إلى كابل، ومكث فيها أربعة أشهر تقريبًا، وأثناء ذلك عمل مع الأمير عبد الرحمن خان، وقدم إليه خدماته للإصلاح وقد أكرمه الأمير عبد الرحمن خان إكرامًا بالغًا، ولكن قال له بشأن تجربة الإصلاحات إنّ أفغانستان بلد صغير ومتخلف جدًا إلى الآن. ولذا أرى من الأفضل أن تقوم بإصلاحاتك في البلاد المتقدمة. فرجع الأفغاني إلى الهند ومنها هاجر إلى لندن (مضامين جمال الدين، الصفحة ٣٠).

(٦) مدينة لندن. مارس الإنكليز على جمال الدين الأفغاني صنوفًا من التعذيب والقهر، فلم يرق لهم =



إلى «باريز»[١]، وأقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات، وافيناه في أثنائها.

ولما كلفته جمعية «العروة الوثقى» أن يُنشىء جريدة تدعو المسلمين إلى الوحدة تحت لواء الخلافة الإسلامية أيدها اللّه، سألني أن أقوم على تحريرها، فأجبت، ونُشِر من الجريدة ثمانية عشر عددًا، وقد أخذت من قلوب الشرقيين عمومًا والمسلمين خصوصًا، ما لم يأخذه قبلها وعظ واعظ، ولا تنبيه منبه، وذلك لخلوص النية في تحريرها وصحة المقصد في تحريرها، ثم قامت الموانع دون الاستمرار في إصدارها حيث أُقفِلَت أبواب الهند عنها، واشتدت الحكومة الإنكليزية في إعنات من تصل إليهم فيه[٢]، ثم بقي بعد ذلك مقيمًا بأوروبا أشهرًا في «باريز» وأخرى في «لندرة» إلى أوائل جمادي الأولى سنة [٣]١٣٠٣، وفيه رجع إلى البلاد الإيرانية[٤].

= وجوده في لندن، وعلى الرغم من قصر فترة الإقامة إلا أنّه التقى الفيلسوف «هربرت سبنسر»، الذي سأله: ما هو العدل، فردّ عليه جمال الدين قائلًا: يوجد العدل عندما تتعادل القوى. (محمد سلام مكور، **جمال الدين الأفغاني باعث النهضة في الشرق** (القاهرة: دون ناشر، ١٩٣٧)، الصفحة ١٤٠.

(١) باريس.

(٢) أدركت الحكومة الإنكليزية الخطر الكامن في مجلة «العروة الوثقى»، فأعلنت الحرب الشاملة عليها، وكان من نذر هذه الحرب أن منعت دخول أعدادها إلى البلاد الإسلامية، وأخذت تتعقب اللذين تُرسِلُ إليهم، وقامت الحكومة المصرية من جانبها بمؤازرة الإنكليز، فحددت عقوبات لمن يضبط ملتبسًا بجريمة قراءتها. ولذا احتجبت عن الظهور في شهر ذي الحجة ١٣٠١ هجريًا ١٨٨٤ ميلاديًا، وكان ما صدر من هذه الجريدة ثمانية عشر عددًا. (محمد سعيد عبد المجيد (سعيد الأفغاني)، **نابغة الشرق - السيد جمال الدين الافغاني** (بيروت: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧ ميلاديًا)، الصفحتان ٥٩ و٦٠.

(٣) الموافق لسنة ١٨٨٥.

(٤) بعد أن ترك «جمال الدين الأفغاني»، زار إيران زيارته الأولى بدعوة من الشاه ناصر الدين، واحتفلت البلاد به حتى استشعر الشاه تسلطه على النفوس. وعلو حرمته عند الأمة فأضمر الحذر ناحيته، وتبين السيد جمال الدين ذلك من قبل الشاه. واستأذنه في الانصراف، وخرج من البلاد الإيرانية فسار إلى «موسكو»، ثم تحوّل إلى «باريز» لشهود معرضها الذي كان سنة ١٨٨٩.
وفيما هو مار في «ميونيخ» وافى الشاه بها فأجمل ملتقاه، ودعاه للمصير إلى بلاده، وألح عليه في ذلك، فسار في صحبته. وما كادت تستقرّ قدمه في بلاد إيران حتى تألب القوم حوله. بما =



[عدو الإنجليز والاستعمار]

أمّا مذهب الرجل فحنيفيّ حنفيٌّ، وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلدًا، لكنّه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية رضي الله عنهم، وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض في مذهبه، وعرف بذلك بين معاشريه في مصر أيام إقامته بها، ولا يأتي من الأعمال إلا ما يحلُّ في مذهب إمامه، فهو أشد من رأيت في المحافظة على أصول مذهبه وفروعه.

= أربى على ما كان منهم في المرة الأولى، وحاول جمال الدين أن ينصح الشاه بالإصلاح فوافقه عليه. ولكن ما طلّ في تحقيقه. فاضطر جمال الدين إلى الاعتكاف بمقام شاه عبد العظيم، الذي يبعد نحو ١٢ ميلًا من طهران. وهناك تقاطر الناس عليه، إلى أن أتى على ذلك نحو ثمانية أشهر- وأمره لا يزداد إلا انتشارًا. حتى ثارت الخواطر في جميع أطراف البلاد. (علي شلش، **جمال الدين الأفغاني بين دارسيه** (القاهرة: دار الشروق الطبعة١، ١٩٨٧)، الصفحة ٢٢). وهذا ما اضطر الشاه إلى القبض عليه وهو مريض وإبعاده إلى الحدود العثمانية، وقد وصف السيّد جمال الحالة التي أُخرج بها إلى العراق في رسالته المعروفة إلى الإمام الشيرازي يقول فيها: « ثّم حملتني زبانيّته الأوغاد وأنا مريض على برزون مسلسلًا في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريريّة، وساقتني جحفلة من الفرسان إلى خانقين، وصحبني جمع من الشرطة إلى بغداد، ولقد كاتب الوالي من قبل والتمس منه أن يبعدني إلى البصرة، علمًا منه أنّه ولو تركني إلى نفسي لأتيتك أيّها الحبر وبثثت لك شأنه وشأن الأمّة وشرحت لك ما حاق ببلاد الإسلام من شرّ هذا. ودعوتك أيّها الحجّة إلى عون الدين وحملتك على إغاثة المسلمين وكان على يقين أنيّ لو اجتمعت بك لا يمكنه أن يبقى على دست وزارته المؤسسة على خراب البلاد وإهلاك العباد. (السيد محسن الأمين، **أعيان الشيعة** (بيروت: دار التعارف، ١٤٠٣ هجرية/ ١٩٨٣ ميلادية)، الجزء ٤، الصفحة ٣١٤. ثّم إنّ السيّد اتجه من البصرة إلى أوروبا مرّة أخرى واستقرّ في لندن وأصدر فيها جريدة «ضياء الخافقين» وقد أدّى ذلك إلى أن تضيّق عليه الحكومة الإنجليزيّة فاستدعاه السلطان عبد الحميد إلى الآستانة فتوجّه إليها سنة١٣١٠ هجريًا، وبقي فيها يواصل نشاطه في سبيل إقامة الدولة الواحدة ووحدة الأمّة الإسلاميّة وإيقاظ المسلمين، إلى أن قتل ناصر الدين شاه سنة ١٣١٣ هجريًا، على يد آقا رضا خان الكرماني وكان من تلامذة السيّد جمال الدين المقرّبين لديه، فطلبت السطات الإيرانيّة من البلاط العثماني تسليمها السيّد جمال الدين بعد أن كشفت للسلطة العثمانيّة حقيقة كونه شيعيًا إيرانيًا، وأدّى ذلك بحسب ما يراه المحقّق «مرتضى مدرّسي جوهاردي» إلى أن تحتال الحكومة الإيرانيّة لقتله، وبعثت من أجل ذلك رجلًا يدعى «ناصر الملك» فاستطاع وبالتنسيق مع السفارة الإيرانيّة في أستانبول على دسّ السمّ للسيّد جمال الدين، فقتل شهيدًا بالسمّ سنة ١٣١٤ هـ.



أما حميته الدينية، فهي ما لا يساويه أحد، يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله.

أما مقصده السياسيّ، الذي قد وجه إليه أفكاره، وأخذ على نفسه السعي إليه مدة حياته، وكلّ ما أصابه من البلاء أصابه في سبيله، فهو استنهاض دولة إسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام بشؤونها، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة، والدولة بالدول القوية، فيعود للإسلام شأنه، وللدين الحنيفي مجده، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية، وله في عداوة الإنكليز شؤون يطول بيانها.

[منزلته من العلم]

أما منزلته من العلم وغزارة المعارف، فليس يحدّها قلمي إلا بنوع من الإشارة اليها. لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وإبرازها في صورها اللائقة بها. كأنّ كلّ معنى قد خُلق له. وله قوة في حلّ ما يعضل منها، كأنّه سلطان شديد البطش، فنظرة منه تفكك عقدها.

كلّ موضوع يلقى إليه، يدخل للبحث فيه، كأنّه صُنع يديه، فيأتي على أطرافه، ويحيط بجميع أكنافه، ويكشف ستر الغموض عنه، فيظهر المستور منه.

وإذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها، ثم له في باب الشعريات قدرة على الاختراع، كأنّ ذهنه عالم الصنع والإبداع، وله لسان في الجدل، وحذق في صناعة الحجة، لا يلحقه فيهما أحد إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه.

وكفاك شاهدًا على ذلك، أنّه ما خاصم أحدًا إلا خصمه ولا جادله عالم إلا ألزمه، وقد اعترف له الأوروبيون بذلك بعد ما أقرّ له الشرقيون.

وبالجملة، فإنّي لو قلت إنّ ما أتاه اللّه من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدّر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

---

(١) سورة **الجمعة**، الآية ٤.



[أخلاق جمال الدين]

أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته، وله حلم عظيم يسع ما شاء اللّه أن يسع إلى أن يدنو منه أحد ليمسّ شرفه أو دينه، فينقلب الحلم إلى غضب، تنقض منه الشهب.. فبينما هو حليم أوّاب إذا هو أسد وثاب.

وهو كريم يبذل ما بيده، قوي الاعتماد على اللّه، لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر، عظيم الأمانة، سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنه، طموح إلى مقصده السياسيّ، الذي قدمناه إذا لاحت له بارقة منه، تعجل السير للوصول إليه كثيرًا وما كان التعجل علة الحرمان.

وهو قليل الحرص على الدنيا، بعيد من الغرور بزخارفها، ولوع بعظائم الأمور، عزوف عن صغارها، شجاع مقدام، لا يهاب الموت كأنّه لا يعرفه، إلا أنّه حاد المزاج، وكثيرًا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة، إلا أنّه صار اليوم في رسوخ الأطواد وثبات الأفناد[١]، فخور بنسبه إلى سيد المرسلين صلى اللّه عليه [وآله] وسلم، لا يعدّ لنفسه مزية أرفع ولا عزًا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر، وبالجملة ففضله كعلمه والكمال للّه وحده.

أما خلقه - بفتح الخاء - فهو يمثل لناظره عربيًا محضًا من أهالي الحرمين، فكأنّما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سكنة «الحجاز» حماه اللّه.

ربعة في طوله وسط في بنيته، قمحي في لونه، عصبي دموي في مزاجه، عظيمُ الرأس في اعتدال، عريضُ الجبهة في تناسب، واسع العينين، عظيم الأحداق، ضخم الوجنات، رحب الصدر، جليل في النظر، هش بش عند اللقاء، قد وفاه اللّه من كمال خلقه، ما ينطبق على كمال خلقه.

بقي علينا أن نذكر له وصفًا، لو سكتنا عنه سُئلنا عن أغفاله، وهو أنّه كان في مصر يتوسع في اتيان بعض المباحات كالجلوس في المنتزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين، وتفريج المحزونين، لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار.

وكان مجلسه في تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية، فكان بعيدًا من

(١) الفند بتح الفاء وسكون النون كالطود: الجبل العظيم.



اللغو، منزهًا عن اللهو، وكان يوافيه فيها كثير من الأمراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم.

وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه، لكن اللّه يحب أن تؤتي رخصة، كما يحب أن تؤتي عزائمه وأي غضاضة على المرء المؤمن في أن يفرج بعض همه، بما أباح اللّه له.

هذا مجمل من أحوال السيد «جمال الدين الأفغاني» أتينا به دفعًا، لما افتراه عليه الجاهلون، ولو سلكنا في تاريخه مسلك التفصيل، لأدى بنا إلى التطويل، وإنّا نتبع بما كتبه «سليم أفندي العنحوري» تخطئة لنفسه، فيما نقله في شرح سحر هاروت[1]، والمطلع على ما كتبنته، يعلم خطأه في جلّ ما رواه.

---

(١) استهل «سليم العنحوري» في شرح ديوان سحر هاروت، ترجمته لجمال الدين ببيتين، قال فيهما:

ترنو إلي بمقلة غضبى إذا بصرت بطود سال كالوديان
فكأنني بيكونسفيلد زمانه وكأنها من بغضها الأفغاني

وفي هذين البيتين صورة فنية طريفة، لما كان بين جمال الدين والإنجليز من صراع وكراهية.
وأما بيكونسفيلد فهو رئيس الوزراء الإنجليزي «بنجامين دزرائيلي (١٨٠٤– ١٨٨١) وقدمه الشاعر رمزًا للإنجليز.
ولكن العنحوري لم يكتفِ بتلك الإشارة الطريفة. وإنّما خاض في سيرة الرجل بما أغضب «محمد عبده». ومن ذلك أنّه ذكر أنّ جمال الدين انحاز إلى أفضل خان، أو محمد أكبر خان حين كان في أفغانستان. وصحة الاسم عند محمد عبده هو محمد أعظم خان. وأنّه ـ أي جمال الدين ـ فرّ من أفغانستان إلى الهند. وهنالك أخذ عن علماء البراهمة والإسلام أجلّ العلوم الشرقية والتاريخ. وتبحر في لغة «السانسكريت» أم لغات الشرق. وبرز في علم الأديان. حتى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدمية العالم. كما ذكر أنه قصد مكة بعد الآستانة. وأقام بها عام وبعض عام حيث أخذ اللسان العربي.
ثم جاء إلى مصر فأكرمه «رياض باشا» بعد أن محضه النصح بأن يلزم خطة الشرع الأنور والدين الحنيف. حيث اعتاد أن يعقد ندوة لمريديه من العلماء والأدباء، وكان يساعد هؤلاء المريدين ويخطب في الناس. حتى أنّه خطب مرة في جمع من النساء في قاعة زيزينيا بالإسكندرية خطبة، خطبت ألوفًا من الفرنكا، فوزعت بإيماء منه على الفقراء.
وأضاف العنحوري أنّ جمال الدين أبعد من مصر وحده بطريق جدة إلى بلاد فارس. في حين =



هذا ما نشر «سليم أفندي العنحوري» في جريدة «لسان الحال» و«الجنة» بحروفها: «لا يخفى أنّنا كنا أتينا في حاشية كتابنا سحر هاروت على شيء من ترجمة الحكيم الشرقي العزيز المادة السيد «جمال الدين الأفغاني» الطائر الصيت وأبَنا في عرض قصصنا لمحةً مما تلقيناه عن بعض المصريين والسوريين من سوء عقيدته، ووهن دينه، مما كان مدعاة أسفنا، وباعث استغرابنا، ثم أسعدنا البخت بأن التقينا تلك الأيام بصديقنا المُحلى بحلية الفضل، الحائز قصب السبق في مضماري العقل والنقل الشيخ «محمد عبده»، أعزّ أخلاء الحكيم المشار إليه، فجال بيننا حديث أفضى إلى البحث، بما يرويه عنه بعض الناس، ورويناه نحن عنهم، فأوضح لنا بدلائل ناهضة وبراهين داحضة، إنّ ما تتناقله الألسن من هذا القبيل، ما كان إلا من آثار ما رماه به بعض من غمرتهم أياديه، فجازوه بالكنود، يعني بهم قومًا كفرة، تزلفوا إليه فاغتر ببراقيش[1] ألسنتهم ووطأ لهم جانب الأنس سالكًا في سبيل إسعادهم كلّ سبيل، فلما دارت عليه الدوائر، وتحوّلت الأحوال، أخذوا يتحججون بالتلمذة عليه، وينسبون ما أُشرِبوا من الكفر إليه وبيّن لنا بأجلى أسلوب أنّ المباحث التي كان يدور بها لسانه أثناء مناظرته الجدلية في بيان عقائد المبطلين كان المراد منها إظهار حقائق النحل والبدع بمعزل عن الاعتقاد بها والجنوح إليها، بل مع تعقيبها بالرد عليها وإقامة الحجج على بطلانها، ثم تأيدًا لمقالة هذا وقفنا على رسالة منسوجة بقلم السيد المشار إليه سوّأ بها أصحاب المبادىء المعطلة من أي فريق كانوا وبيّن قبح طريقتهم بعبارة حنيفٍ عريقٍ، نثبت منها هنا مبحثه في ضرورة اعتقاد الألوهية لسعادة الإنسان.

= سجن تابعه أبو تراب زمنًا، ثم أطلق سراحه، وذهب إلى بيروت [...] أنّ الأفغاني ذهب إلى باريس بعد ذلك. وأصدر «العروة الوثقى» التي علم العنحوري من منزعها - كما يقول- أنّه عاود الاستمساك بالدين الحنيف، وجنح نهج خطة جديدة تكسبه ميل العالم الإسلامي ورضاه عنه. ثمّ تحدث عن هيئته وخصاله [...] يجتنب النساء ويفطم نفسه عن الشهوات، يكره الحلو، ويحب المر، وقلما خلت جيوبه من خشب الكينا والرواند يتنقل بهما تفكهًا. يأكل الوجبة (مرة كلّ يوم)، ولا يأكل إلا منفردًا، يكثر من شرب الشاي، وإذا تعاطى مسكرًا فقليلًا من الكونياك. وليس له من التآليف المطبوعة سوى تاريخ الأفغان» (علي شلش، **جمال الدين الأفغاني- بين دارسيه**، مصدر سابق، الصفحتان ١١٤-١١٥)

(١) براقيش: هي كلبة دلت الأعداء على أصحابها بنباحها فاستبيحوا فضرب فيها المثل بالشؤم.



قال: بعد بيان وجوه زعموها كافية لصلاح النوع البشري، وردّ ما زعموا «فإذن لم يبق للشهوات قامع، ولا للأهواء رادع إلا الإيمان بأنّ للعالم صانعًا عالمًا بمضمرات القلوب، ومطويات الأنفس، سامي القدرة، واسع الحول والقوة مع الاعتقاد بأنّه قد قدّر الخير والشر جزاءً يوفاه مستحقه في حياة بعد هذه الحياة السرمدية». ثم قال «فلم تبقَ ريبة في أنّ الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان، فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهي الحق، ولم يخالطه شيء من أباطيل من يزعمونه، ولا يعرفونه فلا ريب يكون سببًا في السعادة التامة والنعيم الكامل، ويذهب بمعتقديه في جواد الكمال الصوري والمعنوي، ويصعد بذويه إلى ذروة الفضل الظاهري والباطني، ويرفع أعلام المدنية لطلابها بل يفيض على المتمدنين من ديم الكمال العقلي والنفسي ما يظفرهم بسعادة الدارين». ثم أتى بعد هذا في مزايا الدين الإسلاميّ خصوصًا بما يطول بيانه ويعلمه من اطلع على تلك الرسالة، هذا كله بعدما قال في وصف الماديين «أنّهم كيفما ظهروا وتمثلوا وبين أي قوم نجموا،كانوا صدمةً شديدةً على بناءِ قومهم وصاعقةً مجتاحةً لثمار أممهم وصدعًا متفاقمًا في بنية جيلهم، يميتون القلوب الحية بأقوالهم، وينفثون السمّ في الأرواح بآرائهم، ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم فما زرئت بهم أمةٌ ولا مني بشرّهم جيل إلا انتكث فتله، وتبددت آحاده، وفقد قوام وجوده. ثم أطال بيان ذلك إلى حدّ لم يبقَ معه محلًّا للريبة في كمال اعتقاده وجلاء يقينه.

فأخذتنا لذلك خفة الطرب، وسارعنا لإذاعته بلسان الصحف شأن المؤرخ العادل، وقيامًا بحق الأدب وظنًا بفضل هذا الرجل الخطير من أن تتناوله ألسنة من لا يعرفه خطأ وافتراءً، والله يتولى الصادقين.



تحليل خلفيات ومحتوى رسالة الرد على الدهريين[١]

شهد القرن التاسع عشر بروزًا لتيارات فكرية عديدة، وظهرت نظريات حملت صفة العلمية، جذبت إليها عدد من المشتغلين بالشأن الفكري، الذين رأوا فيها بابًا باتجاه الوصول لفكّ رموز الكون وأسرار الوجود، وهذا ما جعلهم يعتقدون أنّه بإمكان العلماء دراسة الإنسان وتاريخه، بنفس الطريقة، التي تُدرس بها العلوم الطبيعية، وساعد على ذلك انتشار الآراء الداروينية، التي تبناها عددٌ من الباحثين، الذين عملوا على استخدامها في دراستهم التي تهتم بالبعد الإنسانيّ، مما أدى إلى انتشار ألفاظ مثل أصول ومراحل وتقدم وتطور وتنمية وتغير وتحوّل، ثم أخذوا بتحليل الآثار الأخلاقية والاجتماعية، وجهدوا لمعرفة دلالة الأفكار الداروينية على العلوم الإنسانية والاجتماعية.

وهذه المعركة لم تبقَ في الغرب، بل حملت مبانيها إلى الأمم الإسلامية والشرقية، حيث عملت الدول الاستعمارية على الاستفادة من هذه المعطيات الفكرية، وأخذت ببثها بين بعض النخب العلمية، التي دعت إلى تعديل الأنظمة التربوية المعمول بها لا سيما في مصر والهند؛ هاتان الدولتان اللتان كانتا خاضعتان للاحتلال الإنكليزي.

أولًا: سبب كتابة الرسالة

ما كاد «جمال الدين الأفغاني» يصل إلى الهند، حتى أخذ الناس يتوجهون إليه

(١) هذا النص لمحقق الرسالة.



لسؤاله عن كيفية مواجهة التدخلات الإنكليزية التي تعمل على تفتيت المجتمع الإسلاميّ عبر بثّ الأفكار المؤيدة لنمط الحياة الإنجليزية. فهذه الدولة التي رأت قوة الإسلام وحيويته، لم تجد بدًّا أمامها إلا بضرب النظام التعليمي، فساندت «حركة عليكره» مع السير «سيّد أحمد خان»، الذي دعا إلى نشر التعليم الغربي وسط المسلمين متذرّعًا بأنّ التجدّد الذاتي غير كافٍ، وأنّ استخدام اللغة الإنجليزية في التعليم كما نشر العلوم والفنون الغربية سوف يجلب منافع للمسلمين، مثل الدخول إلى سلك الوظائف في الحكم البريطاني، وفي قطاع المهن، ولفت انتباه الحكم القائم، وأخيرًا الوصول إلى السلطة. وكانت الحركة نموذج الاتجاه الإصلاحي الثقافي المتغرّب بين المسلمين الهنود، حتى إنّ القادة المسلمين من ذوي الثقافة الغربية، والذين لم يكونوا من خرّيجي المعهد، شاركوا غالبًا في أنشطتها كرعاة لها أو أمناء في مجالسها أو أعضاء في المنظمات المتفرّعة مثل: المؤتمر المحمدي التربوي الذي انطلق عام ١٨٨٦ ميلاديًا، وحملة جامعة عليكره الإسلامية عام ١٨٩٨، والرابطة الإسلامية التي تأسست عام ١٩٠٦ ميلاديًا.

وهذه الجامعة عملت على بث روح الحضارة الغربية، وأخذت تروج للبعد المادي المتأثر بالداروينية، حتى أصبح لفظ «نيشر» على كلّ شفة ولسان، وقد استفاد «المولوي محمد واصل» من وصول «جمال الدين الأفغاني» إلى الهند، ليسأله عن هذه الظاهرة المتفشية في المجتمع. فقام «الأفغاني» بالردّ على هذا الرقيم من خلال هذه الرسالة، التي سعت إلى الردّ على «النيشرية» الانتقائية التي أخذ بها «سيد أحمد خان»[1]، ولكنّه بالإضافة إلى ذلك سعى إلى ما هو أكثر غورًا من ذلك، حيث عمل على رد وتفنيد البعد السياسيّ والحضاريّ لهذه الظاهرة.

فـ«جمال الدين الأفغاني» لم يقف عند حدود « المذهب الطبيعي» بل تعداه لمهاجمة الفوضويين والاشتراكيين الأوروبيين وأسلافهم من المفكرين المتحررين، الذي نشطوا في فرنسا قبيل الثورة الكبرى عام ١٧٨٩ ميلاديًا، وأخذوا يمدون خيوطهم خارج حدود القارة الأوروبية باعتبارهم حركات تسعى إلى تحضير العوالم

---

(١) محمد جابر الأنصاري، تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي ١٩٣٠-١٩٧٠، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٥، نوفمبر ١٩٨٠، الكويت، الصفحة ١٦.



الأخرى. فاستفادت الدول الاستعمارية لا سيما الإنجليز منها لتحقيق أهدافها السياسية، خاصة بعدما عجزت البعثات التبشيرية من تحقيق هدفها.

ويعبر «جمال الدين الأفغاني» عن ذلك، من خلال حديث أجراه مع «عبد القادر المغربي»، ورد فيه: «...وقد سألنا السيّد الأفغاني في بعض جلساتنا إليه عن السبب في تأليف هذه الرسالة التي اشتهرت بأنّها رد على النيشريين، ومَنْ هم هؤلاء النيشريون؟ فقال: إنّ كثيرين من مسلمي الهند تلوثوا بهذه البدعة، التي بثها الإنكليز في بلادهم من حيث أنّهم - أي الإنجليز- رأوها أقرب وسيلة للوصول إلى غرضهم. وتأييد سلطانهم في الهند.

فالإنجليز أدركوا أنّ الديانة الإسلامية صعبة المراس، ولا يمكن أن تستوعب بسهولة، لأنّها تطلب من أتباعها أن يكونوا أصحاب الشوكة والسلطان في أوطانهم. ولاحظوا أنّ ذلك هو طبيعة الإسلام التي لا يمكن انسلاخه عنها: ولا انتزاعها من فطرة أبنائه. ففكروا في أمرٍ يُضعِف أثر هذه العقيدة في نفوسهم، فرأوا أنّ أقرب طريق إلى نيل مرادهم هو نشر التعطيل بين المسلمين وأنّ الدعوة إليه أنفذ إلى قلوبهم من الدعوة إلى التثليث. والتعطيل الذي هو الإلحاد يُسمى بالإنجليزية «نيشر» أو Nature ففتحوا مدرسة عظمى لنشر تعاليم النيشرية وبث مبادئها في نفوس النشىء المسلم»[١].

وهذا يوضح أنّ الغاية الأساسية عند «جمال الدين الأفغاني» لم تكن معرفية بحتة، إنّما تعدتها لتطال البعد السياسيّ والحضاريّ، خاصة أنّ الدول الأوروبية بدأت تعمل على ترويض الدول الإسلامية. فالإنجليز مثلًا، يعملون للقضاء على خصائص القومية الهندية لدى الهنود بدياناتهم المتعددة والمسلمين في بلاد الهند، ويرغبون في صرفهم عن الحضارة والثقافة الإسلاميتين. هذه الحضارة التي كانت حاكمة، وتشكل البنية الحضارية والثقافية عند جميع الهنود حتى غير المسلمين منهم، بالتالي ركزوا على فضّ العلاقة بين المسلمين وتراثهم الحضاري.

فمع رسوخ نفوذ شركة الهند الشرقية (البريطانية) إثر معركة بلاسي

---

(١) عبد القادر المغربي، **جمال الدين الأفغاني: ذكريات وأحاديث**، سلسلة اقرأ، العدد ٦٨، (القاهرة: دار المعارف، الطبعة٢، دون تاريخ)، الصفحتان ٧٠-٧١.



(Plassey) عام ١٧٥٧ ميلاديًا، بدأت أحوال الأقلية الإسلامية بالانقلاب رأسًا على عقب، فبعدما كانت الطبقة الحاكمة مسيطرةً عمومًا، باتت فئة محكومة مهمّشة غالبًا، مع ما اعترى الوضع الجديد من مظالم واختلالات، حيث عُمل على تجهيل المسلمين، عبر وضع أيديهم على أوقافهم التي كانت مخصصة للمساجد والمدارس، ولكنّهم فشلوا فيما كانوا يهدفون إليه، بسبب حمية المسلمين، وعملهم على بث العقائد الإسلامية عبر مؤسسات خاصة أُنشأت لهذه الغاية، ولم يكتفوا بذلك، بل قابل المسلمون الإنجليز بالمقاومة، التي وصلت إلى ذروتها عام ١٨٥٧ ميلاديًا.

بعد هذه الثورة، توصّل الإنجليز إلى قناعة بوجود توجّس مسلم وهندوسيّ حول سياستهم في الهند، حيث ساد اعتقاد بينهما، بأنّ بريطانيا تريد أن تغيّر دينهم، عبر تشجيع التبشير المسيحي، واستبعاد التعليم بالعربية والسنسكريتية، وإغراق الشعب بالجهل والفقر، وبهذا يكون الناس محرومين من معرفة مبادىء دينهم، فيسهل بعد ذلك اجتذابهم إلى المسيحية، مع إقامة مدارس تبشيرية وإجبار الأطفال على دخولها[1]. فالإنجليز رأوا أن يتخذوا سبيلاً ملتوية تنتهي بهم إلى ما يريدون، فشجعوا نشر الأفكار الإلحادية في ثوب العلم الحديث، على غرار ما حدث في بعض الأقطار الأخرى، التي وقعت في حوزتهم فيما بعد. فساعدوا على نشر مذهب «داروين»، وجعلوه أساسًا لمذهب مادي إلحادي، يعرف باسم المذهب الطبيعي أو «النيشري» نسبة إلى «نيشر» باللغة الإنجليزية ومعناها الطبيعة. ويسعى هذا المذهب إلى إثبات أنّ المادة هي كلّ شيء، وأنّها قديمة، وأنّه يمكن تفسير كلّ الظواهر في الكون عن طريق الأسباب المادية، كما يمكن تفسير الحياة والظواهر النفسية والاجتماعية والأخلاقية ببعض الظروف والعوامل الطبيعية.

ومن الواضح أنّ هذا المذهب يقود رأسًا إلى القول بقدم العالم وعدم فنائه، ويتيح ذلك أن ينكر المؤمن به وجود اللّه أو الخالق. ومن هنا، يتدرج بطبيعة الأمر إلى إنكار النبوات والرسالات، ومنها الرسالة الإسلامية، التي لم تستطع أن تتكيف أو تتقبل الاستعمار الإنجليزي.

---

(1) G. F. I. Graham, The Life and Work of Syed Ahmad Khan, William Blackwood and sons, Edinburgh and London, 1885, p.40-42-43.



بالتالي، رأى الإنجليز أنّه يمكنهم الاستفادة من هذا النطاق المعرفيّ في تفكيك أسس المعارضة الإسلامية، فاستثمروا في الحركة التي أطلقها «أحمد خان»، وأفسحوا المجال لها للعمل بحرية، وساهموا ببناء «جامعة أليكرة». وعندما وصل «جمال الدين» كان خطر هذه المدرسة الفكرية قد توسع، وأخذ توجه التحدي الحضاريّ، حيث لم يتوانَ عن الإعلان أنّ كلّ المعارف التقليدية من طبيعيات أرسطو إلى فلسفة ابن سينا وجبر عمر الخيام وكيمياء جابر بن حيان لا قيمة معرفية لها، وهي لا تمثل إلا جانبًا تاريخيًا، وعلى المجتمعات أن تأخذ بتطورها من الأسس الغربية المعاصرة، بكلّ ما فيها.

وهذا البعد هو الذي أثار حفيظة «جمال الدين الأفغاني»، فهو عاين في البلاد التي مرّ بها، نمو التيارات المماثلة، التي تعمل على التشكيك بإمكانيات الدين الإسلامي على الإجابة عن الأسئلة المعاصرة، فها هي مصر التي عاش فيها فترة طويلة من الوقت، أخذت تموج فيها التيارات الفكرية، التي تعمل على فصل الدين عن مجرى الحياة الإنسانية، خاصة أنّ موسم هجرة الشوام إلى مصر، حمل في طياته نزعة ناقمة على السلطة العثمانية بسبب الاضطهاد السياسيّ، الذي كانت تمارسه بحق الأقليات الدينية والقومية، يقول «هشام شرابي»: «أما المسيحيون الذين هاجروا إلى مصر، فإنّهم وجدوا أنّ أمامهم مدى واسعًا من المشاركة السياسية في شكل أوسع. ففي ظل الحكم البريطانيّ، تمتع الكتّاب والصحافيون المسيحيون، اللبنانيون والسوريون، بحرية واسعة للتعبير عن الموضوعات الاجتماعية والسياسية المحظورة في الإمبراطوية العثمانية، وأيدوا هم الحكم البريطانيّ، في شكل عام، وهذا جعل علاقتهم بالوطنيين المصريين سيئة»[١].

وهذا التيار أخذ يروّج وبحكم ثقافته الخاصة لفكرة ضرورة الأخذ من الحضارة الأوروبية، بكلّ تراكماته الناشئة عن العقلانية الدينية، فحركة التنوير: «كان [لها] تأثير كبير على المسيحيين المتعلمين في هذا الجيل. وربما كان «مونتيسكيو»، و«روسو» و«فولتير» أكبر الأثر. طرح مونتسكيو تحليلات للواقع الاجتماعي كانت، في الواقع، ثورية. ووجد منطلقه النسبيّ أذنًا صاغية لدى طبقة كانت تسعى لتحرر نفسها من

---

(١) هشام شرابي، **المثقفون العرب والغرب** (بيروت، دار نلسن، الطبعة ٥، ١٩٩٠)، الصفحة ١٢٧.



المطلقات المحددة والمضطهدة [...] أما تقييم «روسو» فأصعب. من المؤكد أنّ مفهومي «السيادة الشعبية» و«الإرادة العامة» كان لهما تأثيرهما [...] واستعمل هذان المفهومان من بعد مع مفاهيم أخرى «كالحق الطبيعي» و«حقوق الإنسان» كشعارات تؤيد الحكومة الدستورية والتمثيلية [...] ربما كان «فولتير» الأكثر تأثيرًا بين الثلاثة. إذ كان لروحه النقدية وسعة صدره في المسائل الفلسفية والدينية وقع خاص لدى الشباب العرب المتعلمين، وربما كانت معارضته لرجال الدين، المصدر الأساسي لتأثيره»[١]. فالمجتمع المصري ضجّ بالأفكار الغربية المشبعة بالبعد المادي، انطلاقًا من نقطتين هما:

١- المنحى العقلاني الليبرالي لعصر التنوير.

٢- منحى القرن التاسع عشر اليقيني الليبرالي.

وأينما تواجد الإنجليز، كانت هذه النزعة، تطل برأسها، فكما في الهند ومصر، عرفت إيران نزعة طبيعية مماثلة، حيث ظهرت شخصية «مالكوم خان»، التي أخذت تدعو إلى تجديد المؤسسات وتطويرها انطلاقًا من النموذج الغربي، فهو كان يرى أنّ الماضي ليس له علاقة باليوم، وأنّ إيران أمام نفوذ الدول المجاورة لا يمكن لها أن تجني فائدة من الكلمات العربية أو عظام الأجداد، بقدر ما هي بحاجة ماسة الى المعرفة[٢]، ولقد أجاب «ملكوم خان» عن سؤال يتعلق بالدين بشكل صريح من خلال نقاش دار بينه وبين آخندوف (آخوند زاده) في تبليس في آذار ١٨٧٢، حيث أشار الأخير في مذكراته بأنّ «ملكوم خان» أعلن بأنّ الإنسانية تحقق السعادة عندما ينتصر العقل، ولام الأنبياء [عليهم السلام] على معايب هذا العالم، لأنهم قيدوا وأزاحوا موقعه حسب تعبيره[٣]. وأعلن «ملكوم خان» أنّ الغاية الرئيسية من الدين كانت ترسيخ قيم أخلاقية لدى الإنسان، أما المعتقدات والعبادات فما هي إلا وسائل لهذه الغاية[٤].

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ١٤٤.

(2) Bakhash sh . , Iran : Monarchy , Bureacracy and Reform under the Qajars 1858 – 1896 , London , 1978 , pp51-61.

(3) Ibid , P16.

(٤) **المثقفون العرب والغرب**، مصدر سابق، الصفحة ١٤٤.

في عام ١٨٦٧، وجه ثلاثة من المبعوثين الإيرانيين في الخارج وهم: «عبد الرحيم طالبوف» الوزير الإيراني في بطرسبورغ، ويوسف خان مستشار الدولة التبريزي، القنصل الإيراني في باريس، وميرزا محسن خان معين الملك القنصل في لندن، رسالة مشتركة طويلة إلى حكومتهم أوضحوا فيها أن من واجبهم تقديم الصورة التي سمعوها ورأوها حيث كتبوا رؤيتهم إلى ضرورة وضع قانون للبلاد بنفس الطريقة التي أسست فيها الدول القوية قوانينها على أن يكون الإسلام مصدر من مصادر التشريع، ثم أدرجوا في الكتاب ٢٨ فقرة، تتحدث عن الفوائد المعنوية السياسية والاقتصادية للقانون، كانوا قد استقوه بشكل مباشر أو غير مباشر من أفكار مونتسكيو[١].

هذه الوقائع، هي التي أدت إلى كتابة «جمال الدين الأفغاني» هذه الرسالة، حيث رأى أنّ الآراء التي تدعو إلى الإصلاح تخالف ذاتية الأمة، وتعمل على حرفها عن غايتها، ينقل «المغربي» الحوار التالي مع «الأفغاني» قبل استشهاده عام ١٨٩٧ في القسطنطينية، حيث سأله: ألا ترى أيها السيد فرقًا بين حالنا اليوم وحالتنا منذ ثلاثين سنة من حيث الرقي والأخذ بأسباب العمران، مما يصح لنا القول: بإنّنا قد تقدمنا تقدمًا ملموسًا، أجاب «الأفغاني»: «إنّ ما نراه اليوم من حالة حسنة فينا هو عين التقهقر والانحطاط... لأنّنا في تمدننا هذا مقلدون الأمم الأوروبية، وهو تقليد يجر من طبيعته إلى الإعجاب بالأجانب والاستكانة لهم والرضى بسلطتهم علينا»[٢].

كما أنّ «الأفغاني» رأى أنّ مشاريع الإصلاح التي تطرح، هي عبارة عن أفكار منسقة مبثوثة في العالم الإسلاميّ، يعمل من خلالها «الإنجليز» للسيطرة على مقدرات الدول، فليس عبثيًا أن تنتشر الأفكار الطبيعية بوقت واحد في ثلاثة مراكز حضارية، تشكل ثقل العالم الإسلاميّ ومراكز إشعاعه الحضاريّ، لذلك هو استفاد من مناسبة الردّ على حركة «أحمد خان»، ونقض مذهبه التجديدي المتأثر ببعض الأفكار الطبيعية الداروينية، ولكنّه توسع برده، وصوّب باتجاه الإنكليز والمشروع الغربي برمّته، ليظهر أنّ المعركة الحقيقية ليست مع العناوين الجزئية التي تثار في العالم الإسلاميّ، إنّما مع أصل المشروع الحضاري الغربي ورؤيته الكونية.

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٣٥.

(٢) عبد القادر المغربي، **جمال الدين الأفغاني**، مصدر سابق، الصفحة ٩٥.



ثانيًا: محتويات الرسالة

لم تقسم رسالة الرد على الدهريين إلى أبواب وفصول، كما هو متعارف عليه في الأعمال البحثية، إنّما جُعِلَت الفكرة أصلًا للعنونة، مما يشير إلى أنّ الكاتب والمترجم اهتما بالمعلومة أكثر من اهتمامهما بالشكل، ولكن المدقق يستطيع أن يُقسم الكتاب بسهولة إلى قسمين أحدهما عام، يتعلق بأصل الموضوع الذي يعمل عليه؛ وهو الرد على الدهريين وإظهار مثالبهم وتاريخهم وأهم شخصياتهم. والثاني خاص، يتعلق بالإسلام ومميزاته، بالإضافة إليهما أورد الكاتب الرقيمين المتبادلين بين «محمد واصف» وبين «جمال الدين الأفغاني»، ليظهر المناسبة التي دعت إلى كتابة هذا العمل.

القسم الأول: قُسِّم هذا القسم من الرسالة إلى خمسة عناوين، عالجت موضوعات تدخل في صلب العنوان، وأراد من خلاله الكاتب أن يوضح ماهية الدهرية وعلاقتها بالمادية، والغايات التي تسعى لتحقيقها، وكيفية تجليها في التاريخ الإنساني وعلاقتها بالدين. وقد قمنا بهذا التحقيق بإعادة هيكلة العنونة، فقسمناها إلى فصولٍ، ووضعنا ما قمنا به ضمن معكوفين [ ] حتى لا نتدخل بالنص، ونبقيه على أصوله كما كانت في الطبعة الأساسية التي أشرف على نشرها الشيخ «محمد عبده».

وآثر التحقيق على عدم تعديل التسميات مع أنّها لم تعد معتمدة على الشكل الذي وردت في الرسالة، ولذلك لجأنا إلى الهوامش السفلية لوضع المقابل لها.

وبالعودة إلى المحتوى، نلاحظ أنّ **الفصل الأول**، عالج حقيقة مذهب النيشرية والنيشريين وبيان حالهم، وأظهر من خلاله الكاتب أنّ هذا المذهب الفكري، ليس وليدة اللحظة الأوروبية، إنّما هو حركة تعود بجذورها إلى التراث الحضاريّ اليوناني في القرن الثالث والرابع قبل الميلاد، تمّ تفعيله في واقع الحياة الحديثة، مع التحولات التي أصابت المجتمعات، عندما أخذ الإنسان يتمركز حول ذاته الفردية رافضًا كلّ مقولة تؤشر إلى وجود ناظم لهذا الكون.

ف «الأفغاني» قرر منذ بداية هذا الفصل، أنّ المشكل الأساس في ما يذهب إليه «الدهريون» أنّهم يقدمون أنفسهم باعتبارهم قراءة علمية للكون، وأنّهم قد قبضوا على ناصية المعنى الذي يتكلمون به، بينما هم في الحقيقة لا يتعدون كونهم



«دين» بالمعنى الدقيق للكلمة، وما تسربلهم بالعلم إلا من باب التمويه. ولذلك وفي خطوة ذكية منه، ذهب باتجاه موضعتهم في هذا المكان ومناقشتهم على هذا الأساس، ووازن وقارن بين النيشرية والدين، وقال: «الدين قوام الأُمم وبه فلاحها، وفيه سعادتها وعليه مدارها، «النيشرية» جرثومة الفساد، وأرومة الأداد»، وهذه المقارنة توضح أنّهم دين، لأنّ المقارنة لا تجوز إلا بين المتماثلين. وهذا يحيل وبشكل تلقائي إلى رفض المتداول، الذي يصور النزعة «الدهرية» ناتجة عن التطور العلمي، ليجعل منها ديانة ظهرت في السياق العام للأديان، وهي تحمل في طياتها نفس المعطيات التي يتحدث عنها الدين، وإن موهت كلامها بإدخال العلم إليه.

وهذه الهوية التي أعطاها لها، تسحب منها مشروعيتها المرتبطة بفكرة التطور، وتحوّلها إلى مجرد مرحلة مرتبطة بمراحل سابقة، لا تمتلك الأصالة إنّما هي جزءٌ من الصراع بين الأفكار، عُرِف في مراحل سابقة، عندما قام مجموعة من المفكرين الطبيعيين لمواجهة الاتجاه المتأله في الحضارة اليونانية، بالتالي فما نحن أمامه هو استمرار لذلك الصراع مع تبدل بالشكل والتسمية دون المحتوى.

يبدأ «الأفغاني» بعرض هذا التوجه المادي، وقسمه إلى أربع فرق، حيث: «ذهب فريق منهم إلى أنّ وجود الكائنات العلويّة والسفليّة، ونشأة المواليد على ما نرى، إنّما هو من الاتّفاق وأحكام الصدفة، وعلى ذلك إتقان بنائها، وإحكام نظامها، لا منشأ له إلا الصدفة» ويبطل السيد هذه النظرية، فيقول: « أدّت بهم سخافة الفهم إلى تجويز الترجيح بلا مُرجّح، وقد أحالته بداهة العقل».

في حين اعتبر فريق: «أنّ الأجرام السماوية، والكرة الأرضيّة، كانت على هيئتها هذه من أزل الآزال، ولا تزال، ولا ابتداء لسلسلة النباتات والحيوانات. وزعموا أنّ في كلّ بزرة نباتًا مندمجًا فيها، وفي كلّ نبات بزرة كامنة، ثمّ في هذه البزرة الكامنة نبات، وفيه بزرة، إلى غير نهاية. وعلى هذا، زعموا أنّ في كلّ جرثومة من جراثيم الحيوانات حيوانًا تامّ التركيب، وفي كلّ حيوان كامن في الجرثومة، جرثومة أُخرى، يذهب كذلك إلى غير نهاية. وأبطل هذا الرأي بقوله: «غفل أصحاب هذا الزعم عمّا يلزمه من وجود مقادير غير متناهية، في مقدار متناهٍ، وهو من المحالات الأوّليّة». ومال فريق ثالث إلى القول: «إنّ سلسلة النباتات والحيوانات قديمة بالنوع، كما أنّ الأجرام العُلويّة وهيئاتها قديمة بالشخص، ولكن لا شيء من جزئيّات الجراثيم الحيوانيّة والبزور النباتيّة بقديم، وإنّما كلّ جرثومة وبزرة هي بمنزلة

قالب يتكوّن فيه ما يشاكله من جرثومة وبزرة أُخرى». ورد عليهم: «أنّ كثيرًا من الحيوانات الناقصة الخلقة، قد يتولّد عنها حيوان تامّ الخلقة، كذلك الحيوان التامّ الخلقة، قد يتولّد عنه ناقصها أو زائدها». وتوجه فريق رابع إلى القول: «إنّ أنواع النباتات والحيوانات تقلبت في أطوار، وتبدّلت عليها صور مختلفة بمرور الزمن وكرور الدهور، حتّى وصلت إلى هيئاتها وصورها المشهودة لنا [... وزعموا] أنّ الإنسان في بعض أطواره كان مثل الخنزير، مستور البشرة بالشعر الكثيف، ثمّ لم يزل ينتقل من طور إلى طور، حتى وصل بالتدريج إلى ما نراه من الصورة الحسنة والخلق القويم»، ويقول السيد أنّ زعمهم هذا: «لم يُقم دليلًا، ولم يستند على برهان فيما زعمه من أنّ مرور الزمان علّة لتبدّل الصور، وترقّي الأنواع».

ثم بيّن السيد أنّه لما كشف علوم الجيولوجيا (طبقات الأرض) عن بطلان القول بقدم الأنواع، رجع المتأخرون من الماديين عن قولهم بالقدم إلى القول بالحدوث. وبعد ذلك اختلفوا إلى بحثين:

الأول: بحث تكوين الجراثيم النباتية والحيوانية، فذهب جماعة إلى أنّ جميع الجراثيم على اختلاف أنواعها تكونت عندما أخذ التهاب الأرض في التناقص، ثم انقطع التكون بانقضاء ذلك الطور للأرض. وذهبت أخرى إلى أنّ الجراثيم لم تزل تتكون حتى اليوم، خصوصًا في خط الاستواء حيث تشتد الحرارة.

ويعتبر الأفغاني: «عجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياةً نباتيّة أو حيوانية، خصوصًا بعدما تبيّن لهم أنّ الحياة فاعل في بسائط الجراثيم، موجب لالتئامها، حافظ لكونها، وأنّ قوّتها الجاذبة هي التي تجعل غير الحيّ من الأجزاء حيًّا بالتغذية، فإذا ضعفت الحياة، ضعف تماسك البسائط وتجاذبها، ثمّ صارت إلى الانحلال».

وظنّ قوم منهم: أنّ تلك الجراثيم كانت مع الأرض عند انفصالها عن كرة الشمس، وهو ظنّ عجيب، لا ينطبق على أصلهم من أنّ الأرض عند الانفصال، كانت جذوة نارٍ ملتهبة، وكيف لم تحترق تلك الجراثيم، ولم تُمحَ صورها في تلك النيران المستعرة؟!

والثاني من موضع اختلافهم: صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها إلى ذروة كمالها، وتحوّلها من حالة الخداج «النقص» إلى ما نراه من الصور المتقنة،



والهيئات المحكمة، والبنى الكاملة. وقد قسموا إلى قسمين، يقول السيّد في كلّ منهما: «فمنهم قائل بأنّ لكلّ نوع جرثومة خاصة به، ولكلّ جرثومة طبيعة تميل بها إلى حركة تناسبها في الأطوار الحيويّة، وتجتذب إليها ما يلائمها من الأجزاء غير الحيّة ليصير جزءًا لها بالتغذية، ثمّ تجلوه بلباس نوعه»، وقد أبطل السيد قولهم هذا بدليل أنّهم، قد غفلوا عما أثبته التحليل الكيماوي من: «عدم التفاوت بين نطفة الإنسان، ونطفة الثور والحمار مثلًا، وظهور تماثل النطف في العناصر البسيطة، فما منشأ التخالف في طبائع الجراثيم مع تماثل عناصره».

ومنهم: ذاهب إلى أنّ جراثيم الأنواع كافّة، خصوصًا الحيوانية، متماثلة في الجوهر، متساوية في الحقيقة، وليس بين الأنواع تخالف جوهريّ، ولا انفصال ذاتيّ، ومن هذا ذهب صاحب هذا القول: إلى جواز انتقال الجرثومة الواحدة من صورة نوعيّة إلى صورة نوعيّة أُخرى بمقتضى الزمان والمكان، وحكم الحاجات والضرورات، وقضاء سلطان القواسر الخارجيّة، ورأس القائلين بهذا القول هو «داروين»، وعلى زعم هذا: « يمكن أن يصير البرغوث فيلًا بمرور القرون وكرّ الدهور، وأن ينقلب الفيل برغوثًا كذلك».

وعند هذا الموضع، يستهزىء «السيد جمال الدين» من عقلية «داروين» وزعمه الباطل الذي لا ينبني على الحقائق، ويعتبره قد اشتغل بالواهيات، ولم يدقق في الوقائع الماثلة أمامه في الطبيعة، مما أوقعه في الكثير من المبتنيات الفاسدة.

إذًا، رفض «الأفغاني» وجهة نظر «داروين»، لأنّه يفسر لنا التطور بقوة مجهولة تدفع الكائن إلى الانتقال من مرتبة إلى مرتبة أسمى وأرفع في الوجود، ثم أنّه لا يفسر لنا هذه القوة، ولا يبين لنا لماذا تسير في اتجاهات مختلفة، فالتطور معه يسير بلا هدى ولا وفقًا لقوة موجهة أو عناية إلهية باستثناء الصدفة.

وهذا الكلام الذي أورده «الأفغاني» اعترض عليه بعض الدارسين، واعتبر أنّ ما تكلم عنه لا يتعدى كونه خرافة أشاعها بعض المتقولة عن «أصل الأنواع»، وتلقفها «الأفغاني»، وراح يقوض مذهب «داروين» على أساسها دون فحص أو تمحيص أو رجوع إلى مؤلفاته. فهو يقوّل «داروين» مثلًا بأنّ الإنسان كان قردًا ثم ارتقى بعد ذلك، وكلامه هذا مردود، فـ«داروين» لم يقل بشيء من هذا، بل قال:



بما يؤيده فيه الآن مجموع علماء الأرض من أن الإنسان لم يكن على صورته هذه منذ بدء الخليقة، وأنّه تسلسل في أحدث العصور الجيولوجية مرتقيًا عن صورة أحط من صورته التي نراه عليها في هذا الزمان، وأنّ الراجح أن تكون «أوران أوتان» أقرب صور العضويات الحية الموجودة الآن لتلك الصورة التي تسلسل عنها الإنسان، ومن ثم لا تعني أنّ أصل الإنسان قرد كما يقول الأفغاني أو غيره[١].

كما انتُقد «الأفغاني» في نقده لـ«داروين» عندما قال: «فإن سُئِلَ «دروين» عن الأشجار القائمة على غابات الهند، والنباتات المتولّدة فيها من أزمان بعيدة لا يحدّدها التاريخ إلّا ظنًّا، وأُصولها تضرب في بقعة واحدة، وفروعها تذهب في هواء واحد، وعروقها تُسقى بماء واحد، فما السبب في اختلاف كلٍّ منها عن الآخر في بنيته وأشكال أوراقه».

ويعتبر بعضهم: «هـذا النموذج من الكلام يدل بصراحة على جهله التام بالمبادىء الأولية التي بنى عليها داروين مذهبه في أصل الأنواع. فإنّ أول ما شعّ في عقل «داروين» من نور الحقيقة كان ما وجده من اختلاف صور الأحياء الآهلة بمأهل معين مع تناسق الظروف المحيطة بها تناسقًا ظاهريًا. وكان الأجدر أن يتمهل في نقده حتى يطالع شيئًا [...] في «أسباب التغير» أو في «التناحر على البقاء» أو في مختلف صور الانتخاب طبيعيًا ولا شعوريًا وصناعيًا، ليعلم على الأقل إن كان اختلاف الصور العضوية يصح أن يتخذ دليلًا على نقض المذهب أو إثباته[٢].

هذه الانتقادات الموجهة للأفغاني فيها الكثير من الإجحاف بحقه، فهو عندما ردّ على أصحاب هذا المذهب ردّ على ما هو متداول بين أوساط المثقفين، فهو لا يعنيه «داروين» كما هو موجود في كتابه **أصل الأنواع** بقدر ما يعنيه هذا «الداروين» المنتحل الذي نُقل إلى اللغات الشرقية، والذي حمل في ذلك الحيز من الزمن بعدًا ماديًا. فالمثقفون الشرقيون مالوا إلى قراءة تأويلية له، تعمل على تأكيد شرعية النظرة الطبيعية بل تبريرها، وجعلها مقبولة، لذلك هم لم يتوانوا عن إبرازها

(١) إسماعيل مظهر، **ملتقى السبل في مذهب النشوء والارتقاء** (القاهرة: المطبعة المصرية، ١٩٢٥)، الصفحات ١١٦-١١٧- ١٩٨.

(٢) تشارلز دارون، **أصل الأنـواع**، ترجمة إسماعيل مظهر (بيروت: مكتبة النهضة، ١٩٧١)، الصفحات ١٦٧- ١٨٩، ١٩٠.



وتقديمها بغلاف علمي، والسيّد استشعر هذا البعد، وأراد أن يواجهه.

فهو بالأصل لم يعتبر الموضوع موضوعًا فكريًا أو علميًا محضًا، إنّما موضعه في إطار الصراع السياسيّ، الذي يستغل مادة فكرية من أجل إشاعة فكرة سياسية، لذلك آثر التصدي لهذا المشروع بكليته، ولم يدخل في الجزئيات والتفصيلات التدقيقية، لأنّها أصلًا صيغت من أجل تثبيت رؤية بديلة في عقول المسلمين.

وهذا ما سيعود ليثبته بعد ذلك، حين نقل الموضوع برمّته إلى الجهة التي أثارته، وهو التوجه المادي، عندما قال: «ولما ظهر لجماعة من متأخّري المادّيين فساد ما تمسّك به أسلافهم، نبذوا آراءهم وأخذوا طريقًا جديدة، فقالوا: ليس من الممكن أن تكون المادّة العارية عن الشعور مصدرًا لهذا النظام المتقن، والهيئة البديعة والأشكال المعجبة، والصور الأنيقة، وغير ذلك ممّا خفي سرّه وظهر أثره، ولكن العلّة في نظام الكون عُلويّة وسُفليّة، والموجب لاختلاف الصور والمقدّر لأشكالها وأطوارها، وما يلزم لبقائها، تتركّب من ثلاثة أشياء: «متيير»، و«فورس»، و«انتليجانس»؛ أي مادّة، وقوّة، وإدراك. وظنّوا أنّ المادّة بما لها من القوّة، وما يلابسها من الإدراك، تجلّت وتتجلّى بهذه الأشكال والهيئات، وعندما تظهر بصورة الأجساد الحيّة نباتيّة كانت أو حيوانيّة تُراعي بما لابسها من الشعور ما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع، فتنشىء لها من الأعضاء والآلات ما يفي بأداء الوظائف الشخصيّة والنوعيّة، مع الالتفات إلى الأزمنة والأمكنة، والفصول السنويّة. هذا أنفس ما وجدوا من حيلة لمذهبهم العاطل، بعدما دخلوا ألف جُحْر، وخرجوا من ألف نفق». وردّ على هذه المقولة: «وما هو بأقرب إلى العقل من سائر أوهامهم، ولا هو بالمنطبق على سائر أصولهم، فإنّهم يرون كسائر المتأخّرين أنّ الأجسام مركّبه من الأجزاء الديمقراطيسيّة، ولا ينطبق رأيهم الجديد في علّة النظام الكوني على رأيهم في تركيب الأجسام. وذلك لأنه يلزم على القول بشعور المادّة، أن يكون لكلّ جزء ديمقراطيسيّ شعور خاصّ، كما يلزم أن تكون له قوّة خاصّة ينفصل بها عن سائر الأجزاء؛ إذ لا يمكن قيام العَرَض الواحد وحدة شخصيّة بمحلّين، فلا يقوم علم واحد بجزأين ولا بأجزاء وبعد هذا فإنّي سائلهم: كيف اطلّع كلّ جزء من أجزاء المادة مع انفصالها على مقاصد سائر الأجزاء؟ وبأيّة آلة أُفهم كلّ منها بباقيها ما ينويه من مطلبه؟ وأيّ برلمان «مجلس الشورى»، أو أيّ «سنات» «مجلس الشيوخ» عقدت للتشاور في إبداع هذه المكوّنات العالية التركيب، البديعة التأليف؟!».



ويصل إلى القول: «وبيان اللزوم: أنّ العلم عندهم، إنّما هو بارتسام الصور المعلومة في ذات العالم، وهو ماديّ في موضوعنا، فكلّ صورة معلومة تأخذ منه بُعدًا بمقدارها، والصور العلميّة على هذا الزعم غير متناهية، وكلّها يرتسم في مادّة الجزء العالم، فيكون في كلّ جزء – وهو متناهٍ إلى غاية الصِّغر أبعاد غير متناهية للصور غير المتناهية، وهذا ممّا تُبطله بداهة العقل».

وبعد أن يفنّد ما قالوه، ويدحضه بالحجة والعقل، يصفهم بأنهم كانوا فيما ذهبوا إليه أشبه بالممثلين الرديئين، الذين أرادوا أن يقلدوا المثقف الأوروبي، فقدموه بشكل سيء، لذلك هم: «ساقطون عن منزلة اللوم والاعتراض».

أما **الفصل الثاني**: فقد خصصه لرصد مظاهر الماديين ومقاصدهم، ويبدأه «الأفغاني» باستعراض كيفية تقديم أنفسهم للآخرين باعتبارهم حكماء، يسعون إلى رفع الظلم، وتنوير العقول، وفي هذا المجال يؤكد أنهم كيفما ظهروا: «كانوا صدمة شديدة على أبناء قومهم، وصاعقة مجتاحة لثمار أُممهم [...] فما رُزئت بهم أُمّة، ولا مُني بشرّهم جيل، إلّا انتكث فتله، وسقط عرشه».

ويعمل «جمال الدين» من خلال هذا الفصل على إظهار أنّ الاختلاف مع هذا التوجه، لا يقوم على اختلاف في العلم وماهيته، كما يروجون، إنّما في الرؤية الكونية المؤسسة لنظرة الإنسان إلى الكون البانية للحضارة، هذه الرؤية التي تؤسس في الأديان على ثلاثة عقائد أساسية: التصديق بأنّ الإنسان ملك أرضي، وأنّه أشرف المخلوقات. والثانية سكون كلّ ذي دين بأنّ أمتّه أشرف الأمم، وكلّ مخالف له فعلى ضلال وباطل. والثالثة اعتقاده بأنّ الإنسان، إنّما جاء إلى هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي.

أما الخصال الثلاث فهي: الحياء، الذي هو: «انفعال النفس من إتيان ما يجلب اللائمة، وينحى عليها بالتوبيخ، وتأثّرها من التلبّس بما يعدّ عند الناس نقصًا». والأمانة [...] وخَلّة الحياء يلازمها شرف النفس، وهو ممّا تدور عليه دائرة المعاملات، وتتّصل به سلسلة النظام، وهو مناط صحّة العقول، والتزام أحكامها، وهو معصم الوفاء بالعهود، وهو رأس مال الثقة بالإنسان في قوله وعمله. وشيمة الحياء هي بعينها شيمة الإباء، وسجيّة الغيرة، وإنما تختلف أسماؤها باختلاف جهاتها وآثارها في ردع النفس عن شيء، أو حملها على عمل. والإباء والغيرة: هما مبعث حركات الأمم والشعوب لاستفادة العلوم والمعارف، وتسنّم قمم الشرف



والرفعة، وتقوية الشركة وبسط جناح العظمة، وتوفير موادّ الغنى والثروة».

والصدق، الذي يعتبر: «ركنًا ركينًا للوجود الإنساني، وعمادًا للبقاء الشخصي والنوعي، وموصل العلائق الاجتماعيّة بين آحاد الشعوب، ولا تتحقّق أُلفة مدنيّة أو منزليّة بدونه. وانظر فيما إذا فقدت أُمة خَلّة الصدق، كيف يُنيخ الشقاءُ بها رواحلَه، ويُنفذ سوءُ البخت فيها عواملَه، وكيف ينتثر نظامها، ويفسد التئامها».

والأمانة: «ومن المعلوم الجليّ أنّ بقاء النوع الإنساني قائم بالمعاملات والمعاوضات في منافع الأعمال، وروح المعاملة والمعاوضة إنّما هي الأمانة، فإن فسدت الأمانة بين المتعاملين بطلت صلات المعاملة، وانبترت حبال المعاوضة، فاختلّ نظام المعيشة، وأفضى ذلك بنوع الإنسان إلى الفناء العاجل»، ويربط في هذا الموضع بين الأمانة والحكومة، ويعتبر أنّ فقدان هذه الخصلة، يؤدي إلى الفساد.

وهذه الخصال تأثيرها واضح، من حيث تؤكد صلات الألفة بين الأفراد، وتقوي الروابط الاجتماعية بينهم، وتحول دون وقوع الشقاق والخلاف، أو الكجاهرة بالفحشاء والمنافسة في المنكر وسوء الخلق.

و«الأفغاني» في هذا المجال، يقدم قراءة للمجال الحضاري، يظهر من خلاله عدم إمكانية قيام حضارة إنسانية سليمة بعيدًا عن العناصر الاعتقادية والقيمية، وهو في هذا المجال يرفض مقولة التنوير الغربي التي أرادت أن تعزل الإنسان عن هذين العنصرين المؤثرين، وبذلك قد يكون أول من تحدث عن نظرة كونية حاكمة في مرجعيات بناء المجتمعات الإنسانية، هذه النظرة، التي سيعود إليها عددٌ من المفكرين الإسلاميين فيما بعد كالشهيد مرتضى مطهري الذي سيعتبر أنّ أيّ أسلوب أو فلسفة في الحياة لا بد أن يكونا مبنيين – شئنا ذلك أم أبينا – على لون خاص من الاعتقاد أو النظر والتقييم للوجود، وعلى لون خاص من الاعتقاد والنظر والتقييم للوجود، وعلى لون معين من التفسير والتحليل. ويوجد لكل مبدأ انطباع محدد وطراز للتفكير معين في الكون والوجود، ويعتبر هذا أساسًا وخلفية فكرية لذلك المبدأ.

والفصل الثالث: يستتبع «الأفغاني» في هذا الفصل، ما كان قد بدأه في



الفصل السابق، وينتقل للحديث عن «الدهريين» وأثرهم السيء على المجتمعات، لأنّهم يبدأون نظرياتهم بإنكار التوحيد، ويسعون لبطلان العقائد والخصال الدينية، ويعتبرونها عقائد باطلة ومجعولات بشرية وضعية من صنع الإنسان، ولا يعترفون بشرف أمة على أخرى اعتمادًا على أصول دينها، ويقولون إنّ الإنسان كسائر الحيوانات، وليس له أفضلية على البهائم، بل هو أخسّ منها خلقة وأدنى فطرة. وذهبوا إلى أنّه لا حياة للإنسان بعد هذه الحياة أي ينكرون البعث.

وهذه الغايات كلّها تسبب في فتور الهمم وركودًا للحركات الإرادية عن قصد المعالي، وتسهل على الناس إتيان القبائح، وتهون عليهم اقتراف المنكرات، ويمهد لهم طرق البهيمية، وترفع عنهم معايب العدوان، وتطلق النفوس من قيد التأثم، وتجعلها منجرفة إلى العدوان وفعل الخبائث والرذيلة.

فالنيشريون يعملون على هتك الوجود الإنسانيّ، ليزيلوا عن الإنسان كل حرمة، لذلك يعمدون إلى خلة الحياء، ليزيلوها أو يضعفوها. ويعتبرونها نقصًا، كلّ ذلك من أجل إحلال الإباحة، والقضاء على الفضيلة. ولهذا يعمّ الفساد أفراد الأُمة التي تظهر فيها هذه الطائفة.

والمميز فيما طرح هو البعد النفسيّ، حيث ركز «الأفغاني» على ما يخلّفه الإلحاد من اضطرابات، فهذا الاتجاه الذي قطع صلة الإنسان باللّه والآخرة، لم يبقِ له منظورًا لهذه الدنيا غير المتعة واللذة الشهوانية الخالصة. ومع قصر عمر الإنسان، يصبح التلذذ بالشهوات والتمتع بها في ظل التنافس عليها والتباهي بها والصراع من أجلها غايته الأسمى وهدفه الأول، وهذا ما أدى إلى فكرة صراع الجميع ضد الجميع، وإن دفعت هذه الفكرة باتجاه «العقد الاجتماعي»، إلا أنّها أدت إلى إطلاق يد الإنسان بالتصرف في كل ما حوله، وحفزته للعمل من منطلق الكسب والتمتع.

فالإلحاد يؤدي إلى اضمحلال أيّ علة للوجود الجمعيّ، ما يدفع الفرد إلى الأنانية المطلقة والنظرة المنفعية التي تدور حول لذّاته هو ومتعه، غير مبالٍ بمن حوله، طالما وأنه لا غاية خلف الوجود والحياة غير الفناء. فغياب المرجعية الروحية للإنسان والنسبية المعرفية والأخلاقية، ونزع القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة)، تجعل كلّ الأمور متساوية، وهذا ما يحوّل الإنسان شخصية هشة، قابلة للقولبة مع الأعم والأغلب، وهذا الأعم والأغلب تحدده صفوة من الشخصيات



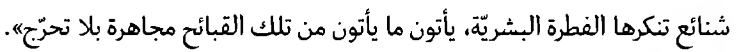
النيتشوية القوية المسيطرة من الاقتصاديين والسياسيين والإعلاميين، فتآكل المعايير الأخلاقية والاجتماعية السائدة في المجتمعات يترك الإنسان بلا معايير، أي بلا مقاييس يحتكم إليها، وهذا ما كان «الأفغاني» قد أشار إليها.

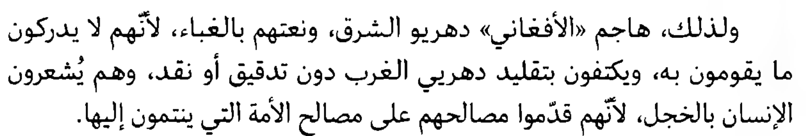
والفكرة الثانية التي تشكل أهمية في هذا القسم هو إثارة موضوع العلاقة بين النموذج المعرفيّ ونظرة الإنسان للحياة، ويعتبر «جمال الدين الأفغاني» في هذا المجال، أنّ النموذج الغربي أظهر تحيزًا واضحًا للطبيعي/ المادي على حساب الإنساني، وهو تحيّز ضد الطبيعة لصالح الطبيعة المادية وطبيعة الأشياء. وكما يذكر «المسيري» فهو نموذج يخضع الإنسان بشكل مطلق لقوانين الضبط والقياس والتحكم التي تستخدم في دراسة الظواهر الطبيعية[1]. وفي وصف هذه المادية الغربية، يقول «مالك بن نبي» إنّ هذه الحضارة وضعت المادة من حيث المبدأ هي العلة الأولى لذاتها، وهي أيضًا نقطة البدء في ظواهر الطبيعة، والخاصية الوحيدة للمادة في مبدأ الأمر»[2]. وبتتبعه لجذور الثقافة الغربية، فإنّ «ابن نبي» اعتبر أنها قد أدت إلى إتلاف قداسة الوجود بسبب منشأ ثقافتها التي يطلق عليها اليوم (العلمية)، والتي أخضعت كلّ شيء وكل فكرة إلى مقياس الكم، ومع مرور الوقت ترك الغرب كلّ قداسة الأشياء، من ثم كلّ القيم المقدسة، ولم يبقَ في ذهن الإنسان الغربي مفهوم التكريم فأفقدت الحضارة الغربية الإنسان إنسانيته فأصبح إمّا وحشًا مفترسًا ينقضّ على ما لا يستطيع امتلاكه، أو أصبح حيوانًا تائهًا في المتاهات التي تفتح له باب الفساد والشذوذ عن الفطرة وغيرها، وهذه هي الأزمة التي تعاني منها الإنسانية اليوم»[3]، وهو ما برز في الرسالة التي بين أيدينا. فالنموذج الغربي الذي يقوم على المادة هدّام، ولهذا: «قد يعمّ الفساد أفراد الأُمة التي تظهر فيها هذه الطائفة، وكلٌّ لا يدري من أيّ باب دمر الفساد على قلبه، فتشيع بينهم الخيانة، والغدر، والكذب والنفاق، ويهتكون حجاب الحياء، وتصدر عنهم

(١) عبد الوهاب المسيري، **إشكالية الحيز**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٥.

(٢) مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ترجمة عبد الصبور شاهين (دمشق: دار الفكر، الطبعة ١، ١٩٨٤)، الصفحة ٧.

(٣) مالك بن نبي، **دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين** (دمشق: دار الفكر، الطبعة١، ٢٠٠٢)، الصفحة ٤٧.


شنائع تنكرها الفطرة البشريّة، يأتون ما يأتون من تلك القبائح مجاهرة بلا تحرّج».


ولذلك، هاجم «الأفغاني» دهريو الشرق، ونعتهم بالغباء، لأنّهم لا يدركون ما يقومون به، ويكتفون بتقليد دهريي الغرب دون تدقيق أو نقد، وهم يُشعرون الإنسان بالخجل، لأنّهم قدّموا مصالحهم على مصالح الأمة التي ينتمون إليها.

الفصل الرابع: خُصِص لتقديم مقاربة تاريخية، تُظهِر أثر الدهرية في تدهور حال المجتمعات الإنسانية، فالحضارة بالنسبة إلى السيد الأفغاني لا يمكن أن تقوم بمعزل عن البعد الدينيّ، الذي يتأسس على عناصر قيمية إنسانية. فالحضارة اليونانية بقيت قوية ومتماسكة، واستطاعت أن تتغلب على الأمة الفارسية إلى أن أتى «أبيقور» وأتباعه، وقالوا إنّ الإنسان ليس بأشرف المخلوقات، وأنكروا عقيدة البعث بعد الموت، ووسموا الإنسان بالحيوانية، واعتبروا أنّ كل ما تعلمه من الفنون والصنائع هو بالتقليد عن الحيوانات. ولذا، ينبغي له أن يكون مثلها، ثمّ عمدوا إلى خصلة الحياء الصادة عن ارتكاب الرذائل، وأزالوها من النفوس، واستحلوا أموال الناس، وبدأوا يقتحمون الموائد دون أن يطلبوا إليها، حتى سُموا بالكلاب، وأشاعوا في الأسواق بأنّ المال مشاع بين الناس: «فلمّا ضربت أفكار «الدهريّين» في نفوس اليونان، بسعي الأبيقوريّين، ونشبت بعقولهم، سقطت مداركهم إلى حضيض البلادة، وكسد سوق العلم والحكمة، وتبدّل شرف أنفسهم بالذُّلّ واللُّؤم، وتحوّلت أمانتهم إلى الخيانة، وانقلب الوقار والحياء قِحّة وتسفّلًا، واستحالت شجاعتهم إلى الجبن، ومحبّة جنسهم ووطنهم إلى المحبّة الشخصيّة... تهدّمت عليهم الأركان الستّة التي كان يقوم عليها بيت سعادتهم، وانتقض أساس إنسانيّتهم، ثمّ انتهى أمرهم بوقوعهم أسرى في أيدي الرومانيين «جنس اللاتين»، وكُبِّلوا في قيود العبوديّة زمنًا طويلًا، بعد ما كانوا يُعَدّون حكامًا في الأرض بلا معارض».

ما قدمه «الأفغاني» في هذا المورد يحتاج إلى مراجعة، فهو مزج بين المدرسة الأبيقورية والمدرسة الكلبية على الرغم من الاختلاف والتناحر الواضح بينهما، ولكن هذا لا يقلل من قيمة ما أورده، حيث إذا تمّ التغاضي عن هذا الجانب، يمكننا أن نلاحظ الجانب الآخر الأكثر غنى في مقولاته، والمتمثل بالأصل المصدري للفلسفة الأبيقورية في الفكر الغربي الحديث، حين تحوّل هذا الفيلسوف إلى مصدر إلهام، تنهل منه الحداثة الغربية مقولاتها، لذلك ليس غريبًا أن نجد «ب. غاسندي» (١٥٩٢– ١٦٥٥)، يعود إلى «أبيقور» من أجل نقد النزعة الأرسطية التي هيمنت على الفكر المسيحي، وهذا ما سيعود ويظهر من خلال



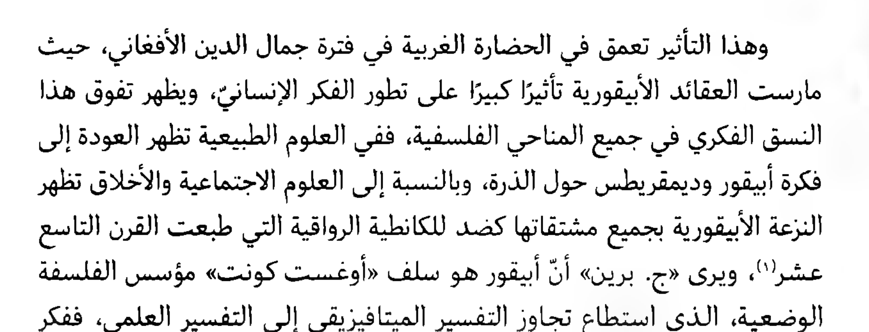
الفيلسوف «توماس هوبز»، الذي سيذهب للاستثمار في «أبيقور» أيضًا، حين اعتبر أنّ جميع دوافع الإنسان موجهة نحو حفظ الحياة، وحفظ الذات. فالإنسان بذاته أنانيّ وشرير، وهذا الدافع هو الذي جعله يهدف إلى تحصيل أكبر قدر من اللذات بالقوة، وتجنب أكبر قدر من الآلام، وما مشاركته لأبناء جنسه في بعض جوانب الحياة إلا أنانية مقنعة بغرض الحصول على أكبر قدر من اللذات بأقل مجهود - إذ إنّ التعاون سيوفر عنه بعض المشقة - لذلك نراه - أي هوبز - يقرر أن السلم غاية أساسية للإنسان غير أنّهما يفترقان في مفهوم السلم الذي يراه أبيقور في الزهد والتقليل من الحاجيات والاشتغال بالفلسفة والاستقلال عن كلّ سيطرة، بينما يرى «هوبز» ذلك في امتلاك القوة المادية التي تضمن استمرار التوازن بين مختلف فئات المجتمع ومعنى ذلك وجوب استحداث قوة جديدة، يخضع لها الجميع. والملاحظ هنا أن هوبز يتحدث عن المواطن بينما أبيقور يتحدث عن الحكيم»[١]، وهذه الأنانية والتمركز حول الإنسان، سنجدها بعد ذلك عند «لاروش فوكو» (١٦١٣- ١٦٧٧) و«هالفيتوس» (١٧١٥- ١٧٧١)، و«دولباخ» (١٧٢٣-١٧٨٩) وصولًا إلى «قسطنطين فرونسوا فولني» (١٧٥٧- ١٨٢٠) الذي اعتبر الإنسان في تصرفاته الأخلاقية ينطلق من مبدأ المقابل والمنفعة الذاتية، وما تصرفه تجاه الآخرين بلطف إلا من أجل مقابل، ويرى «غيو» أنّ الأبيقورية، قد أخذت شكلها النهائي عند فولني وتأسست صوريًا على رفض كلّ مبدأ آخر سوى المنفعة الذاتية، وكلّ قوة ملزمة سوى القوانين[٢]. هذا ويعتبر «جيرمي بنتام» (١٦٤٨- ١٨٣٢) مؤسس مذهب المنفعة من القائلين بالمقولات «الأبيقورية»، حيث يقول: «إنّ الطبيعة رضخت لبني الإنسان تحت سيطرة حكمين ذوي سيادة اللذة والألم، وهما اللذان يحكمان في كلّ ما نفعل، وفي كل ما نقول، وفي كلّ ما نفكر، وكلّ محاولة نبذ لها للتخلص من ذلك لا تجدي نفعًا»[٣]، كما هو واضح هذا النص أبيقوري خالص.

---

(1) GUYAU J.M ,La morale D'epicure et ses rapports avec les doctrines contemporaines, paris: allons1878, p 225.

(2) Ibid, p.275.

(٣) عبد الرحمن بدوي، **موسوعة الفلسفة** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٤)، مادة بنتام، الصفحات ٣٦٤- ٣٦٦.



وهذا التأثير تعمق في الحضارة الغربية في فترة جمال الدين الأفغاني، حيث مارست العقائد الأبيقورية تأثيرًا كبيرًا على تطور الفكر الإنسانيّ، ويظهر تفوق هذا النسق الفكري في جميع المناحي الفلسفية، ففي العلوم الطبيعية تظهر العودة إلى فكرة أبيقور وديمقريطس حول الذرة، وبالنسبة إلى العلوم الاجتماعية والأخلاق تظهر النزعة الأبيقورية بجميع مشتقاتها كضد للكانطية الرواقية التي طبعت القرن التاسع عشر[١]، ويرى «ج. برين» أنّ أبيقور هو سلف «أوغست كونت» مؤسس الفلسفة الوضعية، الذي استطاع تجاوز التفسير الميتافيزيقي إلى التفسير العلمي، ففكر أبيقور هو أساس الفكر المعاصر»[٢].

فالأبيقورية أرخت بظلالها على النسق المعرفي الغربي الحديث والمعاصر، وجعلت منه أصلًا مرجعيًا لها، وهذا الأمر، ظهرت معالمه بشكل واضح عند «كارل ماركس» حيث وجد في فلسفته أهم عناصر المادية الجدلية، وقد ذهب في رسالته للدكتوراه حول الفرق بين فلسفة الطبيعة عند ديمقريطس وأبيقور إلى تأييد وجهة نظر «أبيقور» في نظرية الانحراف، حيث استخلص منها أبعاد أخلاقية واجتماعية، فقد لاحظ أنّ الذرة: «كما أنها تتحرر من وجودها النسبي وهو الخط المستقيم باستبعاده والحياد عنه، فكذلك تبتعد الفلسفة الأبيقورية كلّها عن نمط الوجود التحديدي... وبهذه الصورة، تصبح غاية العمل هي التجرد واستبعاد الألم، وكلّ ما من شأنه إحداث الاضطراب فينا، وهكذا يتمثل الخير في النفور من الشر، وتتمثل اللذة في تجنب الألم»[٣]، وبناء على هذا، ذهب بعض الباحثين إلى أنّ «ماركس» بوقوفه إلى جانب «أبيقور»، لم يبين أهمية الحرية الفردية فحسب، بل أهمية عامل العمل الموضوعي.

ف «كارل ماركس» وجد في الفلسفة الأبيقورية البعد «ضد المنطقي» للرواقية الروحية، وتحرر الإنسان من سيطرة الدين والغيبيات من أجل بناء مجتمع يحفظ

---

(1) A.F. BAILLAT, La notion d'existence, antiquité classique, civilisation moderne (paris: 1954) pp.35,40.

(2) J.BRUN, l'épicurisme,(P.U.F,1959), collection, que sais-je, N°810, p.114.

(٣) نيشيف وفولتشكو، **أخلاقيات السعادة**، ترجمة: يوسف الجهماتي (دمشق: دار حوران، ١٩٩٨)، الصفحة ١١.

للإنسان كرامته، وكان يرى أنّ أبيقور هو الوحيد بين القدامى الذي أثار العقول وهاجم الأديان، وهو من تنسب إليه الإلحادية الرومانية حيث قدمه تابعه «لوكريس» كبطل استطاع التغلب على الأديان.

وهكذا، يمكننا أن نرى أن التشابه بين الفلسفة الماركسية والأبيقورية كبير جدًا، ويعود إلى المبدأ المشترك في النظرة المادية إلى العالم، والمحتوى الاجتماعي الأخلاقي. فالصراع بين الطبقات يمكن تفسيره بالصراع بين اللذة والألم، فوجود الألم سببه خارجي ناتج عن الصراع الذي يدور بين الإنسان والواقع المحيط به، بين الرغبات والعوائق الخارجية.

ما يريد الأفغاني من هذا الاستعراض ليس التأريخ الفكري، إنّما نقد الأسس للحداثة الغربية التي تأسست بمجملها على أرضية «الأبيقورية»، وهو عندما أوردها في كتابه كان يريد أن يظهر الأسس التي قامت عليها هذا الحضارة، بالتالي فهي لا تصلح لتكون أداة للنهوض الحضاري، وهذا ما سيوضحه في نهاية هذا الفصل، وهذه القاعدة التي بناها على أرضية الحضارة اليونانية، أخذ يطبقها على الحضارات الأخرى، وعلى الرغم من انتقاله إلى الحضارة الفارسية، فإنّه أظهر أنّ سبب انهيار هذه الحضارة يعود إلى الأسباب نفسها التي أدت إلى انهيار اليونانية، والتي تتمثل بالمادية المقنعة والإباحية، وهذا ما ينطبق على الحضارة الإسلامية.

وهنا، قد يستغرب بعض الباحثين سبب حشر الفاطميين في هذا الموضع، دون شك لم يكن «الأفغاني» على جهل بكيفية تطور المذهبيات في الإسلام، وهو عندما ناقش هذا الموضوع لم يقصد الفاطمية كإطار عام، إنّما مال إلى فرقة منهم، هم الحشاشون أو النزارية التي انشقت عن الفاطمية وأسست دولة لها في قلعة الموت، وهي اعتبرت: «إنّ الأعمال الشرعيّة الظاهرة، كالصلاة والصيام ونحوهما، إنّما فُرضت على المحجوبين دون الوصول إلى الحّق، والحقّ هو المرشد الكامل، فحيث إنّك وصلت إلى الحقّ، فإيّاك أن تُلقي عن عاتقك ثقل الأعمال البدنيّة، فإذا مضى عليه زمن في عهدهم، صرّحوا له، بأنّ جميع الأعمال الباطنة والظاهرة، وكذلك سائر الحدود والاعتقادات، إنّما أُلزمت فرائضها بالناقصين، المصابين بأمراض من ضعف النفوس ونقص العقول، أمّا وقد صرت كاملًا، فلك الاختيار في مجاوزة كلّ حدّ مضروب، والخروج من أكنان التكاليف إلى باحات الإباحة الواسعة... ما الحلال؟! وما الحرام؟! ما الأمانة؟! وما الخيانة؟! ما الصدق؟! وما الكذب؟!



ما هي الفضائل؟! وما هي الرذائل؟!... ألفاظ وضعت لمعانٍ مخيلة، وما لها من حقيقة واقعيّة في زعم المرشد. فإذا قرّر المرشد أُصول الإباحة في نفوس أتباعه، التمس لهم سبيلًا لإنكار الأُلوهيّة، وتقرير مذهب النيشريّة «الدهريّين».

ويستمر الأفغاني بعرضه التاريخي، ليصل في نهاية الأمر إلى مهاجمة دهريي الشرق، ونعتهم بالغباء، لأنّهم لا يدركون ما يقومون به، ويكتفون بتقليد دهريي الغرب دون تدقيق أو نقد، وهم يُشعرون الإنسان بالخجل، لأنّهم قدّموا مصالحهم على مصالح الأمة التي ينتمون إليها.

الفصل الخامس: وتحدث فيه على وجوب الدين للمجتمع، ويرى «السيّد جمال الدين» أنّ العقيدة الدينية تكفل السعادة للمجتمع الإنساني، ويفيض في شرح ذلك، وبيّن أنّ المذهب الطبيعيّ لا يجتمع معها فضلًا على أنّه لا يكفل السعادة.

وفي بيانه هذا، سلك طريق السبر والتقسيم، ليصل إلى القول: «وليس من الممكن أن يجتمع لشخص واحد، وهمُ الدهري، وفضيلة الأمانة والصدق، وشرف الهمّة وكمال الرجولة». فالطبيعة الإنسانية بالنسبة لـ«الأفغاني» تسعى دائمًا للوصول إلى شهواتها الخاصة، وهذا ما يجعلها تبحث عنها بشكل دائم. وفي هذا المجال، هناك أربع طرق لتحقيق ذلك:

١- أما بالسيف والقوة، وهذا يفضِ إلى سفك الدماء والتخريب.

٢- وأما شرف النفس، وشرف النفس محدود بالعرف والعادة، وليس له مقياس، ولذلك لا يمكن أن يجعل شرف النفس ميزانًا للعدل.

٣- وأما الحكومة وهي لا تعرف إلا الاعتداءات الواضحة وأما المفاسد المموهة الخفية، ورجال الحكومة قد يكونوا أيضًا من المفسدين أعوان الفجار والسرق.

٤- وأما الاعتقاد بمدبر الكون، وبأنّه مالك الجزاء في الحياة الأبدية، وذلك هو المتعين.

وبعد هذا العرض، يصل إلى القول الذي ينهي فيه القسم الأول من الكتاب، الذي يظهر فيه التعارض بين الدين والدهرية، فيقرر: «فتبيّن ممّا قرّرناه: أنّ الدين



وإن انحطّت درجته بين الأديان، ووهن أساسه، فهو أفضل من طريقة الدّهريّين، وأمسّ بالمدنية، ونظام الجمعيّة الإنسانيّة، وأجمل أثرًا في عقد روابط المعاملات، بل في كلّ شأن يفيد المجتمع الإنساني، وفي كلّ ترقٍّ بشريّ إلى أيّة درجة من درجات السعادة في هذه الحياة الأولى».

القسم الثاني: يخصص جمال الدين الأفغاني هذا القسم لإظهار تمايز الإسلام عن غيره من الديانات، فهذا الدين أُقيم على أساس من الحكمة متين، ورُفع بناؤه على ركن لسعادة البشر مكين: «ذلك أنّ عروج الأمم على معارج الحق الأعلى، وتدرج الشعوب في مدارج العلم الأجل، وصعود الأجيال على مراقي الفضائل وإشراف طوائف على دقائق الحقائق ونيلهم للسعادة الحقيقية في الدارين كل ذلك مشروط بأمور لا يتم إلا بها»، لأنّ هذا الدين يحمل في طياته مزايا لا تتوفر في الديانات الأخرى، وهي:

أولًا: صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام، فمن أهم أصوله الاعتقاد بأنّ الله متفرد بتصريف الأكوان متوحد في خلق الفواعل والأفعال، وأنّ من الواجب طرح كلّ ظن في إنسان وجماد علويًا كان أو سفليًا بأنّ في الكون أثرًا بنفع أو ضرّ أو إعطاء أو منع أو إعزاز أو إذلال لغيره.

ثانيًا: إنّ دين الإسلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلّها، وأثبت لكلِّ نفس الحق في طلب فضيلة ومحق امتياز الأجناس وتفاضل الأصناف، وقرّر الميزات البشرية على أساس الكمال العقليّ والنفسيّ، فالناس يتفاضلون بالعقل والفضيلة لا بأيّ شيء آخر، وقد لا نجد في الأديان ما يجمع أطراف هذه القاعدة.

ثالثًا: إنّ دين الإسلام يكاد يكون متفردًا من بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون. فهو يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكلما خاطب خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم العقل، تنطق نصوصه بأنّ السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأنّ الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة.

رابعًا: إنّ الإسلام أوجب تعليم سائر الأمة وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم،



وفرض نصب المعلم ليؤدي عمل التعليم، وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، فقال القرآن الكريم: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[١]، وقال: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾[٢].

ويعتقد «الأفغاني» أنّ كلّ ركن من هذه الأركان له أثره البالغ في تقويم المدنية، وتشييد بناء النظام الإنساني، وتعزيز السعادة الإنسانية، وقد دارت حالة المسلمين رقيًا وانحطاطًا على حسب تمسكهم بهذه الأصول وابتعادهم عنها.

ويختم رسالته بالقول: «وهذا آخر ما أردت بيانه في هذه الرسالة ينتهي به. ما أجملته في كشف سوآت النيشريين «الدهريين» ومضار طريقتهم في المدنية والهيئة الاجتماعية الإنسانية وتوضيح الأدلة على منفعة الأديان ولزومها لقيام النظام البشري خصوصًا على دين الإسلام وإلى الله المنتهى ورضاه المبتغى والصلاة والسلام على خاتم رسله وآله وصحبه وسلم».

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٠٤.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ١٢٢.



نص رسالة الرد على الدهريين



مقدّمة

نحمد اللّه على الهداية، ونعوذ به من الغواية، ونصلّي ونسلّم على خاتم رسله وآله وصحبه هُداة سُبله. وبعد، فقد أُتيح لي الاطّلاع على رسالة فارسية في نقض مذهب الطبيعيّين، من تصنيف العالم الكامل، محيط المعرفة الشامل، الشيخ جمال الدين الحسيني الأفغاني.

أما الشيخ فله من لسان الصدق، ورفيع الذكر، ما لا يحتاج معه إلى الوصف، وأمّا الرسالة، فعلى إيجازها قد جُمِعَت لإرغام الضالّين، وتأييد عقائد المؤمنين، ما لم يجمعه مطوَّل في طوله، وحوت من البراهين الدامغة، والحجج البالغة، ما لم يحوه مفصَّل على تفصيله.

دعاه إلى تصنيفها حميّة جاشت[١] بنفسه أيّام كان في البلاد الهنديّة، عندما رأى حكومة الهند الإنكليزية تمدّ في الغيّ جماعة من سكّان تلك البلاد، إغراءً لهم بنبذ الأديان، وحلّ عقود الإيمان، وأنّ كثيرًا من العامّة فُتنوا بآرائهم، وخُدِعوا عن عقائدهم، وكثُر الاستفهام منه عن حقيقة ما تدّعيه تلك الجماعة الضالّة، وممّن سأله عن ذلك حضرة الفاضل مولوي[٢] محمد واصل، مدرّس الفنون الرياضيّة بمدرسة الأعزّة بمدينة «حيدر آباد الدكن» من بلاد الهند، فأجابه الشيخ برقيم صغير يعده فيه بإنشاء رسالة في بيان ما كثر السؤال عنه.

---

(١) اضطَرَبَتْ مِنْ حُزْنٍ أَوْ فَزَعٍ.

(٢) المولوي: نسبة إلى «المولى»، وهو هنا السيّد والزاهد والمالك والمنعم، ويطلق على ضدّ ذلك كالعبد والمعتق - بفتح التاء - والمنعَم عليه.



وقد حداني[١] علوّ الموضوع، وسمّو منزلة الرسالة منه، إلى الاجتهاد في نقلها من لغتها إلى اللغة العربيّة، فتمّ لي ذلك بمساعدة عارف أفندي الأفغاني[٢]، تابع الشيخ المؤلّف، ورجونا بذلك تعميم الفائدة، وتكميل العائدة إن شاء اللّه.

وإنّا نذكر ترجمة الرقيمين، مبتدئين برقيم مولوي محمد واصل، وهو:

[رقيم المولوي محمد واصل]

١٩ محرّم سنة ١٢٩٨ (بعد رسوم المخاطبة)[٣].

يقرع آذاننا في هذه الأيام صوت «نيشر»... «نيشر»[٤]، وإنّه ليصل إلينا من جميع الأقطار الهنديّة، فمن الممالك الغربيّة والشماليّة، و«أوده»[٥] و«بنجاب»[٦] و«بنجاله»[٧] و«السند»[٨] و«حيدر آباد الدكن»[٩]، ولا تخلو بلدة أو قصبة من جماعة

---

(١) ساقني.

(٢) ابن أخت السيّد جمال الدين رحمه اللّه، وهو المشهور بأبي تراب، وكان يلازم السيّد جمال الدين أينما رحل إلى أن نفي السيّد جمال من مصر في عهد توفيق إلى الهند، فبقي عارف أفندي في مصر، ولكن لمّا نُفي الأستاذ الإمام إلى سورية، رافقه إلى هناك. [محمود أبي ريّة، **جمال الدين الأفغاني** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦١)، الصحة ٢٩].

(٣) الموافق ٢٢ ديسمبر [كانون الأول]سنة ١٨٨٠ ميلاديًا.

(٤) المقصود «نيتشر» Nature، ومعناها: الطبيعة.

(٥) كانت مملكة أودة في شمال الهند، وهي تشكل حدود الهند الشمالية مع النيبال، ولقد لعبت أدوارًا هامة في التاريخ الحديث من خلال حكامها الذين كانوا ينتمون إلى سلالة الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام.

(٦) ولاية هندية تقع في شمال الهند، وتشكل الجزء الكبير من إقليم البنجاب. يحدّها من الشمال ولاية جامو وكشمير، من الغرب هيمشال بارديش، هاريانا من الجنوب والجنوب الشرقي، ومحافظة البنجاب الباكستانية من الشرق، راجستان من الجنوب الغربي. عاصمتها مدينة شانديغرا .

(٧) كانت ولاية في شمال الهند.

(٨) كانت في الهند، وهي اليوم إحدى أقاليم باكستان الأربع. عاصمة الإقليم هي مدينة كراتشي والتي تعد أكبر مدن البلاد. يجاور الإقليم من الشمال والغرب إقليم بلوشستان، وتجاورها أيضًا من الشمال إقليم البنجاب، أما من الشرق فتجاورها الهند.

(٩) حيدر آباد (الدكن) مدينة هندية هامة تقع جنوب الهند وهي عاصمة ولاية أندرا براديش سابقًا قبل الانفصال وعاصمة ولاية تلنقانا حاليًا.



يُلقّبون بهذا اللقب «نيشريٌّ»، ويظهر لنا أنّ من تعلق عليهم هذا اللقب، ينمو عددهم على امتداد الزمان، خصوصًا بين المسلمين، ولقد سألْتُ أكثر من لاقيتُ من هذه الطائفة: ما حقيقة النيشرية؟ وفي أيّ وقت كان ظهور النيشريّين؟ وهل من قصد هذه الطائفة بمسلكها الجديد عندنا أن تقوم عماد المدنية، ولا تعدو هذا المقصد، أو لها مقاصد أُخرى؟ وهل طريقتهم تنافي أصول الدين المطلق، أو هي لا تعارضه بوجه ما؟ وأيّ نسبة بين آثار هذا المشرب وآثار مطلق الدين في عالم المدنيّة، والهيئة الاجتماعيّة الإنسانيّة؟ فإن كانت هذه الطريقة من النِحل القديمة، فلِمَ لم تُنشر بيننا؟ ولِمَ لم نعهد لها دعاة إلّا في هذه الأوقات؟ وإن كانت جديدة، فما الغاية من إحداثها؟ وأيّ أثر يكون عن الأخذ بها؟

ولكن لم يفدني أحد منهم عمّا سألت بجواب شافٍ كافٍ، ولهذا ألتمس من جنابكم العالي، أن تشرحوا حقيقة النيشريّة والنيشرييّن، بتفصيل يُنقع الغلّة[1]، ويشفي العلّة، والسلام.

[رقيم جواب جمال الدين الأفغاني]

وهذا رقيم السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني، جوابًا عن الرقيم السابق:

محبّي العزيز:

«النيشر»: اسم للطبيعة، وطريقة «النيتشر»: هي تلك الطريقة الدهرية التي ظهرت ببلاد اليونان في القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح، ومقصد أرباب هذه الطريقة محو الأديان، ووضع أساس الإباحة، والاشتراك[2] في الأموال والأبضاع[3] بين الناس عامّة. وقد كدحوا لإجراء مقصدهم هذا، وبالغوا في السعي إليه، وتلوّنوا لذلك في ألوان مختلفة، وتقلّبوا في مظاهر متعدّدة، وكيفما وُجدوا في أُمة أفسدوا أخلاقها، وعاد عليهم سعيهم بالزوال.

---

(١) الغُلّة: حرارة العطش، ونقع الماء العطش: أي اسكنه وقطعه.

(٢) وهو ما سموه بالاشتراكية الفوضوية.

(٣) البُضع - بضم الباء - النكاح والمباضعة والإبضاع - بكسر الهمز - المجامعة بين الرجل والمرأة. والمقصود هنا: النساء وحق التمتع بهن بالاشتراك.



وأيّما ذاهب ذهب في غور مقاصد الآخذين بهذه الطريقة، تجلّى أن لا نتيجة لمقدّماتهم سوى فساد المدنيّة، وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية؛ إذ لا ريبة في أنّ الدين، مطلقًا، هو سلك النظام الاجتماعي، ولن يستحكم أساس للتمدّن بدون الدين البتّة.

وأوّل تعليم لهذه الطائفة إعدام الأديان[١] وطرح كلّ عقد[٢] ديني. وأمّا عدم شيوع هذه الطريقة، وقلّة سلوكها مع طول الزمن على نشأتها، فسببه أنّ نظام الأُلفة الإنسانيّة؛ - وهو من آثار الحكمة الإلهيّة السامية- كانت له الغلبة على أُصولها الواهية، وشريعتها الفاسدة، وبهذا السرّ الإلهي انبعثت نفوس البشر لمحو ما ظهر منها، ومن هذا لم يبقَ لهم ثبات قدم، ولم تقم لهم قائمة أمر، ولا في وقت من الأوقات.

ولتفصيل ما ذكرنا، نتقدّم لإنشاء رسالة صغيرة، أرجو أن تكون مقبولة عند العقل الغريزي[٣] لذلك الصديق الفاضل، وأن تنال من ذوي العقول الصافية نظرة الاعتبار. وهذه هي الرسالة.

---

(١) محاربة الأديان وعدم الأخذ بتعاليمها.

(٢) يريد بالعقد العقيدة.

(٣) يريد من الغريزي الأصيل، لا المنحرف ولا المخطئ.



[القسم الأول]

[البشرية والدين]



[الفصل الأول]

حقيقة مذهب النيشرية والنيشريين وبيان حالهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[1].

الدين قوام الأُمم وبه فلاحها، وفيه سعادتها وعليه مدارها.

«النيشرية»[2] جرثومة الفساد، وأرومة الأداد[3]، وخراب البلاد، وبها هلاك العباد. شاع لفظ «النيشرية» حتى طبق البلاد الهندية في هذه الأيّام، وأصبحت هذه الكلمة دائرة في المحافل سيّارة في المجامع، وللعامّة والخاصّة فيها مذاهب وَهْم، وطرائق وَهْم[4]، فالغالب منهم يخبط على بُعدٍ من حقيقتها، في غفلة عن أصل وضعها.

لهذا، رأيت من الحقّ أن أشرح مفهومها، وأكشف المراد منها، وأرفع الستار عن حال «النيشريّين» من بداية أمرهم، وأعرض للناظرين شيئًا من مفاسدهم، وما ألحقوا بالنوع الإنساني من المضارّ التي خبُث أثرها، وساء ذكرها، مستندًا في ذلك على التاريخ الصحيح، آخذًا من البرهان العقلي بدليل يثبت أنّ هذه الطائفة على اختلاف

---

(١) سورة **الزمر**، الآيتان ١٧ - ١٨.

(٢) مال البعض إلى استخدام كلمة «نيتشرية»، ولكنّ التحقيق مال إلى استخدام الأصل كما ورد في ترجمة «محمد عبده».

(٣) الإداد: جمع الإدّ، وهو الداهية والويل والأمر الفظيع، والمنكر الشديد.

(٤) الوَهْم خواطر القلب والتخيّل، والوَهم الطريق الواسع.



مظاهرها، لم يفشُ رأيها في أُمّة من الأمم إلّا كان سببًا في اضمحلالها وانقراضها.

٧٢ [ماهية النيشرية وأصولها]

أثبت ثقات المؤرّخين: أنّ حكماء اليونان انقسموا في القرن الرابع والثالث قبل المسيح إلى فئتين: ذهبت إحداهما إلى وجود ذات مجرّدة عن المادّة والمدّة[١]، مخالفة للمحسوسات في لوازمها، منزّهة من لواحق الجسمانيّة وعوارضها، وأثبتت أنّ سلسلة الموجودات مادّية ومجرّدة، تنتهي إلى موجود مجرّد واحد من جميع الوجوه، مبرًّأ الذات عن التأليف والتركيب، ومحال عند العقل تصوّر التركيب فيه، وجوده عين حقيقته، وحقيقته عين وجوده، وهو المصدر الأوّل، والموجد الحقيقي، والمبدع لجميع الكائنات، مجرّدة كانت أو مادّية.

واشتهرت هذه الطائفة بالمتألّهين «الخاضعين للّه»، ومنهم: «فيثاغورث»[٢]، و«سقراط»[٣]، ....

---

(١) المُدّة جمع مُدد: البرهة من الزمان قصيرًا أو طويلاً، والغاية من الزمان والمكان.

(٢) وُلِد فيثاغوروس على الأرجح في ساموس في إحدى الجزر اليونانية نحو سنة ٥٧٢ قبل الميلاد [...] تأثر بروحانية الشرق وصوفيته وعاد إلى جزيرته لينشر آراءه الداعية إلى الترفع عن الدنيا والسير نحو المثل العليا، فإذا بالطاغية بوليقراطوس مستبد بالحكم يرهق الناس [...] فنفر من الظلم نحو سنة ٥٣٢ ق.م. إلى بلدة كروتون الواقعة في إيطاليا الجنوبية [...] فأنشأ جمعية مثالية، [...] كانت تجمع بين الدين والسياسة والفلسفة وتفرض على المنتمين تطهير النفس بالتقشف والانقطاع عن كل ما يثير الشهوات للتحطّم قيود الجسد، وتتفلت الروح من سجنها [...] وكان الهدف من الجمعية هو خلق مجتمع مثالي مصغّر [...] يحكمه فلاسفة ويسنّون له أنظمة مثالية على أن يتسع فيعمّ الأمة ثم يعم المعمور فيتحقق الحلم الجميل ويصبح العالم مجتمعًا مثاليًا أكبر. (عبده الشمالي، دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها (بيروت: دار صادر، ١٩٦٥)، الصفحة ١١.

(٣) ولد سقراط في ضواحي أثينا سنة ٤٦٩ ق.م. وعاش فيها حياته كلها إلى أن كانت وفاته سنة ٣٩٩ ق. م. كان سقراط يحب الحكمة ويرفض ربطها بالمال، الأمر الذي أثار عليه السوفسطائيون، الذين كانوا يمارسون التعليم بأجر. ولقد أخذ موقفًا مضادًا للديمقراطية مما جلب له نقمة الكثير من أفراد الشعب، وكذلك انتقد الأرستقراطية فغضب عليه رجالاتها. حُكِمَ عليه بالإعدام، قضى قبل تنفيذه ثلاثين يومًا في السجن كان أصدقاؤه وبعض تلامذته يغريه أثناءها بالفرار، فلم يستجب لهم ورفض إغراءهم لأن الفرار من الموت عنده شكل من الجبن،



و«أفلاطون»[١]، و«أرسطو»[٢] ومن أهل مذهبهم كثير.

= إضافة إلى أنّه من واجب الفرد أن يطيع القانون، وإذا ما حكم عليه بالموت فواجبه أن يتقدّم إليه طائعًا. وعندما حان وقت تنفيد الحكم قدّم له السمّ فتجرّعه بكل إقدام، يشتهر سقراط في تاريخ الفلسفة بأنه دائم البحث عن المعرفة من خلال الإنسان، لذلك عمل على بناء منظومة أخلاقية تقود الإنسان إلى الكمال والفضيلة. [ناجي التكريتي، **الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام** (بيروت: دار الأندلس، الطبعة ٢، ١٩٨٢م)، الصفحة ٢١].

(١) وُلِدَ في أثينا (٤٢٧-٤٢٨ ق.م / ٣٤٧-٣٤٨ ق.م) فيلسوف يوناني، عُرِف بحواراته الفلسفية، ويُعتبر مؤسسًا لأكاديمية أثينا، معلمه سقراط وتلميذه أرسطو، وضع أفلاطون الأسس الأولى للفلسفة والعلوم، وعرَّف الفلسفة بأنها السعي الدائم لتحصيل المعرفة الكلية الشاملة، التي تستخدم العقل وسيلة لها، وتجعل الوصول إلى الحقيقة أسمى غاياتها. تميّزت الميتافيزيقا الأفلاطونية بين عالمين: العالم الأول، أو العالم المحسوس، هو عالم التعددية، عالم الصيرورة والفساد. ويقع هذا العالم بين الوجود واللاوجود، ويُعتبَر منبعًا للأوهام (معنى استعارة الكهف) لأن حقيقته مستفادة من غيره، من حيث كونه لا يجد مبدأ وجوده إلا في العالم الحقيقي للـمُثُل المعقولة، التي هي نماذج مثالية تتمثل فيها الأشياء المحسوسة بصورة مشوّهة. ذلك لأن الأشياء لا توجد إلّا عبر المحاكاة والمشاركة، ولأن كينونتها هي نتيجة ومحصلّة لعملية يؤديها الفيض، كصانع إلهي، أعطى شكلًا للمادة التي هي، في حدِ ذاتها، أزلية وغير مخلوقة (تيميوس). هذا ويتألف عالم المحسوسات من أفكار ميتافيزياقية (كالدائرة، والمثلث) ومن أفكار «غير افتراضية» (كالحذر، والعدالة، والجمال، إلخ)، تلك التي تشكِّل فيما بينها نظامًا متناغمًا، لأنه معماري البنيان ومتسلسل بسبب وعن طريق مبدأ المثال السامي الموحِّد الذي هو «منبع الكائن وجوهر المُثُل الأخرى»، أي مثال الخير. لكن كيف يمكننا الاستغراق في عالم المُثُل والتوصل إلى المعرفة؟ في كتابه فيدروس، يشرح أفلاطون عملية سقوط النفس البشرية التي هَوَتْ إلى عالم المحسوسات - بعد أن عاشت في العالم العلوي - من خلال اتحادها مع الجسم. لكن هذه النفس، وعن طريق تلمُّسها لذلك المحسوس، تصبح قادرة على دخول أعماق ذاتها لتكتشف، كالذاكرة المنسية، الماهية الجلية التي سبق أن تأمّلتها في حياتها الماضية: وهذه هي نظرية التذكُّر، التي يعبّر عنها بشكل رئيسي في كتابه مينون، من خلال استجواب العبد الشاب وملاحظات سقراط الذي «توصل» لأن يجد في نفس ذلك العبد مبدأ هندسيًا لم يتعلّمه هذا الأخير في حياته. [أفلاطون، **فيدون والجمهورية**، ترجمة: فؤاد زكريا (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥)].

(٢) ولد أرسطو في مدينة أسطاغيرا بمقدونيا سنة ٣٨٤ ق.م، ٥٥ كيلومتر شرقي مدينة سالونيك، ترك أرسطو مقدونيا إلى أثينا في السابعة عشرة من عمره لينال تعليمه والتحق فيها بأكاديمية أفلاطون، وقد استمر في الأكاديمية نحوًا من عشرين سنة قبل أن يغادر أثينا في ٣٤٨ ق.م. بعد وفاة أفلاطون سنة ٣٤٧ ق.م. ارتحل إلى آترنيوس إحدى المدن اليونانية في آسيا الصغرى، =



وذهبت أُخرى الطائفتين إلى نفي كلّ موجود سوى المادّة والماديّات، وأنّ وصف الوجود مختصّ بما يدرك بالحواسّ الخمس لا يتناول شيئًا وراءه، وعُرِفَت هذه الطائفة بالماديّين. ولما سُئِلوا عن منشأ الاختلاف في صور الموادّ وخواصّها، والتنوّع الواقع في آثارها، نسبه الأقدمون منهم إلى طبيعتها، واسم الطبيعة في اللغة الفرنسوية «ناتور»، وفي الإنجليزية «نيشر»، ولهذا اشتهرت هذه الطائفة عند العرب بالطبيعيّين، وعند الفرنساويين باسم «نتوراليسم»، أو «ماتييراليسم»[١]، الأوّل من حيث هي طبيعيّة، والثاني من حيث هي مادّيّة.

ثمّ اختلف هؤلاء بعد اعتماد أصلهم هذا في تكوين الكواكب، وتصوير الحيوانات، وإنشاء النباتات: فذهب فريق منهم إلى أنّ وجود الكائنات العلويّة والسفليّة، ونشأة المواليد على ما نرى، إنّما هو من الاتّفاق وأحكام الصدفة[٢]،

= حيث تزوج شقيقة حاكمها هرمياس، وما هي إلا ثلاث سنوات وبعد إقامة قصيرة في جزيرة لسبوس، حتى تلقى دعوة من الملك فيليبوس المقدوني ليكون معلم ابنه الذي أصبح فيما بعد الإسكندر الكبير. وقد لازم أرسطو الإسكندر صديقًا، ومعلمًا، ومستشارًا حتى قام سنة ٣٣٤ ق.م بحملته الحربية الآسيوية، ومما يروى أن الإسكندر كان يرسل من البلدان التي يمرّ فيها نماذج من نباتاتها وحيواناتها إلى أستاذه مساهمة منه في زيادة اطلاعه، وتسهيل أبحاثه ودراساته. ومن هنا استطاع أرسطو أن يؤسس ما يعتبر أول حديقة حيوان في العالم. في أثينا سنة ٣٣٢ ق.م، افتتح أرسطو مدرسة لوقيون. وقد عرف أتباعه بالمشائين لأنّ أرسطو كان من عادته أن يمشي بين تلامذته وهو يلقي عليهم الدروس. وظل يدير مدرسته ١٣ عامًا. على الرغم من عداوة الأثينين لمقدونيا التي استعبدتهم.

اجتذبت مدرسة أرسطو الكثير من التلامذة، وأمست مركزًا للأبحاث البيولوجيه والتاريخية، والشؤون الحكومية والإدارية، ولم يكن ثمة موضوع يناقش في أيام أرسطو لم يتطرق إليه في مدرسته، أو في كتبه، ويجلوه ويوضحه، ومن أشهر مؤلفاته «أورغانون، السياسة، فن الشعر، تاريخ الحيوانات، وعلم الفلك».

(١) **الماديون.**

(٢) ورد في تحقيق خسرو شاهي، المصادفة بدل الصدفة، ولعلّه الأصوب، ولكن لقد شاع في العصور المتأخرة استعمال مفردة «صُدْفَةٌ»، فيقول أحدهم مثلًا: لقيتُ فلانًا صُدْفةً، أي دون سعي منّي إلى ذلك ، أو دون سابق تخطيط أو تصور. ومن ناحية اللغة فإنّ الصَدَفَةَ معروفةٌ، والصَدَفُ المحار الذي يعيش فيه بعض الحيوانات، خلقه اللّه حماية لأجسادها الطرية، وكذلك صَدَفةُ الكَتِفِ، والركبتين في الإنسان، ومنه يُقالُ صَدِفَ فلانٌ يَصْدِفُ صَدْفًا: أي التقت ركبتاه =



وعلى ذلك إتقان بنائها، وإحكام نظامها، لا منشأ له إلا الصدفة...كأنّما أدّت بهم سخافة الفهم إلى تجويز الترجيح بلا مُرجّح[١]، وقد أحالته بداهة العقل.

ورأس القائلين بهذا القول «ديمقراطيس»[٢]، ومن رأيه أنّ العالم أجمع

= أثناء سيره دون إرادة منه، وقد انسحب هذا المعنى على لقاء فلان بفلان دون إرادة منهما .وقد نص مجمع اللغة العربية في القاهرة على وجوب استعمال مفردة مصادفة، فيقال صادف يصادف مصادفة حيث جاء في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الأعداد (٨١ - ١٠٢) - (الجزء ٧، الصفحة ١٠) الآتي: «ومن الاستعمالات الشائعة قولهم: صَدَفَ أن حدث كذا، ورأيتُه صُدْفَةً، ومعنى صَدَفَ: أَعْرَضَ، والصواب: صادف أن حدث كذا، ورأيتُه مصادفة: «كما جاء في حديث ساعة الإجابة: لا يصادفها عبد مؤمن إلا غفر له». إذن فالمفردة من الفعل صادف لا صَدِفَ، وعليه فالصحيح لغة أن تقول: رأيتُ فلانًا مصادفةً.

(١) هذه العبارة يستعملها المتكلمون كثيرًا، ومرادهم بها أن الحادث لا بد له من سبب يقتضي حدوثه، ولا يمكن حدوثه بدون ذلك.

(٢) تابع ديمقريطس التقليد الفلسفي العلمي الذي وضعه أستاذه لوقيبوس. ويبدو أنه حمله معه من مالطيا. وكلاهما اعتقدا: «إنّ كلّ شيء مكون من ذرات، والذرات لا تقبل الانقسام من الوجهة المادية، وإن تكن قابلة للانقسام من الوجهة الهندسية؛ ويذهبان إلى أنّ الذرات يفصلها بعضها عن بعض فراغ، وأنّ الذرات يستحيل فناؤها، وأنّها كانت منذ الأزل، وستظل إلى الأبد في حركة دائمة، وأنّ هنالك من هذه الذرات عددًا لا نهاية له، بل لا نهاية لعدد أنواع الذرات التي تختلف بعضها عن بعض شكلًا وحجمًا. [برتراند رسل، **تاريخ الفلسفة الغربية**، ترجمة: زكي نجيب محمود (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠)، الصفحتان ١٢٦ و١٢٧]. ولهذا كانت فلسفتهما فلسفة جبرية - مادية (حتمية) تقوم على إن كل شيء في العالم هو نتيجة القوانين الطبيعية. وعلى هذا الأساس الذري (المادي) والحتمي (قوانين الطبيعة)، رأوا إنّ تفسير العالم لا يحتاج إلى غرض أو محرك أول أو سبب نهائي؛ أي لا يحتاج إلى تدخل خارجي مثل الخالق، فبرأيه: «ليس للكون في رأيه غاية ينشدها، إذ ليس هناك إلا ذرات تسير بمقتضى قوانين آلية». [برتراند رسل، **تاريخ الفلسفة الغربية**، مصدر سابق، الصفحة ٢٣٥]. واعتقد ديمقريطس بأن الأرض مدورة، وإنّ الكون ليس أكثر من ذرات دقيقة في حالة فوضى، ومن ثم أخذت تتصادم بعضها بالبعض، فتلتقي وتتجمع سوية في صورة كبيرة. وهذا التصور الميكانيكي للذرات يشمل الأرض وكلّ شيء.

وآمن ديمقريطس بوجود عوالم عديدة، منها ما هو في حالة نمو، ومنها ما اندثر وتلاشى. ومنها دون الشمس أو القمر، وبعضها له شموس وأقمار عديدة، وإنّ كلّ العوالم لها بداية ونهاية. كما ويرى إنّ العوالم يمكن أن تتعرض للدمار، وذلك من خلال اصطدام بعضها بالبعض الأخر. ومن =



أرضيّات وسماويّات، مؤلّف من أجزاء صغار صلبة متحرّكة بالطبع، ومن حركتها هذه ظهرت أشكال الأجسام وهيئاتها بقضاء العماية المطلقة.

وذهب فريق آخر إلى أنّ الأجرام السماوية، والكرة الأرضيّة، كانت على هيئتها هذه من أزل الآزال، ولا تزال، ولا ابتداء لسلسلة النباتات والحيوانات. وزعموا أنّ في كلّ بزرة[1] نباتًا مندمجًا فيها، وفي كلّ نبات بزرة كامنة، ثمّ في هذه البزرة الكامنة نبات، وفيه بزرة، إلى غير نهاية. وعلى هذا، زعموا أنّ في كلّ جرثومة[2] من جراثيم الحيوانات حيوانًا تامّ التركيب، وفي كلّ حيوان كامن في الجرثومة، جرثومة أُخرى، يذهب كذلك إلى غير نهاية..!

وغفل أصحاب هذا الزعم عمّا يلزمه من وجود مقادير غير متناهية، في مقدار متناهٍ، وهو من المحالات الأوّليّة.

وزعم فريق ثالث: أنّ سلسلة النباتات والحيوانات قديمة بالنوع، كما أنّ الأجرام العُلويّة وهيئاتها قديمة بالشخص، ولكن لا شيء من جزئيّات الجراثيم الحيوانيّة والبزور النباتيّة بقديم، وإنّما كلّ جرثومة وبزرة هي بمنزلة قالب يتكوّن فيه ما يشاكله من جرثومة وبزرة أُخرى.

وفاتتهم ملاحظة أنّ كثيرًا من الحيوانات الناقصة الخلقة، قد يتولّد عنها حيوان

= ثم ترتب على هذا الموقف الفلسفي المادي الحتمي، نظرية في الأبستمولوجيا. فمثلًا إنّ معرفة الحقيقة (أو الصدق) وفقًا لديمقريطس من الصعوبة بمكان، وذلك ما دمنا نعتمد على الإدراك الحسي. والحواس هي ذاتية إذ منها نحصل على انطباعات، وهي تختلف من فرد وآخر. ولهذا، اعتقد ديمقريطس إن الانطباعات الحسية لا تساعدنا على محاكمة الحقيقة. ولكن في الوقت نفسه إنّ كلّ ما نقوم به، هو تفسير المعطيات الحسية من خلال الفكر (العقل). وهذا هو طريق إدراك الحقيقة. ولعلّ ذلك يعود إلى أن الحقيقة دائمًا هي في القاع .

(١) ورد في تحقيق خسروشاهي «بذرة» حيث وردت «بزرة». والبزرة ما تتكوّن في الثمرة وتحوي الجنين النباتيّ وتُحفظ للزّراعة، وتُنتج نباتًا جديدًا إذا تهيّأت لها ظروف الإنبات، ولا يختلف معنى البذرة عنها.

(٢) جزء من حيوان أو نبات صالح لأن ينتج حيوانًا أو نباتًا آخر كالحبّة في النبات والبيضة المخصَّبة في الحيوان.



تامّ الخلقة، كذلك الحيوان التامّ الخلقة، قد يتولّد عنه ناقصها أو زائدها.

ومال جماعة منهم إلى الإبهام في البيان، فقالوا: إنّ أنواع النباتات والحيوانات تقلبت في أطوار، وتبدّلت عليها صور مختلفة بمرور الزمن وكرور[1] الدهور، حتّى وصلت إلى هيئاتها وصورها المشهودة لنا، وأوّل النازعين إلى هذا الرأي «أبيقور»[2]أحد أتباع «ديوجينس ....

---

(١) ورد في تحقيق خسرو شاهي «كر»، والأصوب استخدام كرور لأنّها جمع «كر».

(٢) أبيقور: هو الذي وضع أُصول مذهب اللذّة والسرور، وهدفه الاستمتاع بلذّة الحياة. وقد ولد سنة ٣٤٢ قبل الميلاد، وتُوفّي سنة ٢٧٠ قبل الميلاد. نظّر هذا الفيلسوف للتفلسف الأداتي الذي لا يرى في البحث أو التأمل غاية في حد ذاتها، بل تلحقهما بالهدف العملي للفلسفة. هذا التصور الوظيفي للفلسفة سيتم استعادته، في العصر الحديث، من طرف كارل ماركس الذي يرى أن على الفلسفة أن لا تتوقف عند حدود تفسير العالم بل يجب أن تسعى إلى تغييره، ومعروف أن أطروحة ماركس من أجل نيل درجة الدكتوراه كانت حول أبيقور وديموقريطس. وللوصول إلى السعادة يصف أبيقور «دواءً رباعيًا» يتمثل في التحرر من أربعة أشياء:

١- تحرير بني البشر من الخوف من الآلهة. وذلك بالبرهنة على أن هؤلاء بسبب طبيعتهم المباركة وعيشهم في سعادة مطلقة لا ينشغلون بمشكلات الإنسان. وتدخلهم في عالم بني البشر، سيكون منافيًا لطبيعتهم، وستترتب عنه واجبات عليهم القيام بها اتجاه الإنسان، وهذا يتنافى مع طبيعتهم ككائنات حرة وسعيدة لا واجبات لديها ولا مسؤوليات، وعلى الإنسان الحكيم أن يغبطهم لذلك ويجلهم بدل الخوف منهم. ولكي يبرهن على أن الآلهة لا تتدخل في شؤون العالم يتطرق إلى مشكلة الشر الذي يأتي إلى العالم على شكل كوارث طبيعية وأمراض فتاكة يحار الإنسان في تفسير علتها ويمنحها تفسيرات غالبًا ما تكون ذات طابع تطيري، بسبب عدم توفره على الأدوات المناسبة لتمحيصها ومعرفتها.

٢- تحرير بني البشر من الخوف من الموت. وذلك بالبرهنة على أنه لا شيء بالنسبة لهم. فأبيقور يعطي الموت تفسيرًا فيزيائيًا، اعتمادًا على نظرية ديموقريطس، أي إن الأحاسيس تنتج داخل الإنسان انطلاقًا من تدفق الذرات التي تنفصل عن سطح الأشياء وتنتج جراء ذلك صورًا تكون مشابهة للأشياء التي انفصلت عنها. من هذه الصور إذن تأتي الأحاسيس وعن الأحاسيس تصدر التمثلات الخيالية التي تنتج بدورها عن المزج بين صورتين اثنتين، السنتور، الكائن الخرافي، هو مثال على هذا لأنه يمزج بين صورة الإنسان والحصان. ومن الأحاسيس المتكررة والمخزنة في الذاكرة تأتي التمثلات العامة أو المفاهيم ويطلق عليها أبيقور المقدمات. هذه المقدمات هي التي تمكننا من استباق الأحاسيس المستقبلية. فالموت =



الكلبي»[١]، ومن مزاعمه: أنّ الإنسان في بعض أطواره كان مثل الخنزير، مستور

= هو انتفاء للأحاسيس بسبب انفصال الذرات وعودتها إلى طبيعتها الأصلية. يقول أبيقور «الموت لا شيء بالنسبة لنا: لأن ما هو مندثر فاقد للحس، وما هو فاقد للحس لا شيء بالنسبة لنا.»

٣- البرهنة على أن حدود اللذة متاحة، بمعنى سهولة الوصول إلى اللذة ذاتها. واللذة هي حجر الأساس في فلسفة أبيقور، حتى إن مفهوم الخير يقترن باللذة، فهي المعيار الذي يقيّم به الأبيقوري الخير والرفض والقبول، فالإنسان يسعى إلى اللذة ويتفادى الألم. ولا يجب فهم اللذة على أنها الشهوانية والشبق، فاللذة تخضع للحساب الدقيق والحذر. يقول أبيقور في رسالته إلى مينيسيوس «عند كل لذة يجب طرح سؤال: ماذا سيحصل إذا تم إشباع هذه اللذة؟ ماذا سيحصل عندما لا يتم إشباعها؟ فقط الحساب الحذر للملذات يمكن الإنسان من الاكتفاء بذاته ولا يتحول إلى عبد للحاجات وللقلق بشأن الغد. وهذا الحساب لا يمكن رده إلا إلى الحكمة، فرونيسيس. والحكمة أيضًا أثمن من الفلسفة، لأن منها تأتي كل الفضائل وبدونها تصير الحياة من دون عذوبة، ولا جمال، ولا عدالة.» واللذة نوعان: اللذة الثابتة واللذة المتحركة. اللذة الثابتة هي التي تتمثل في انعدام الألم، واللذة المتحركة هي التي تتكون من الفرح والابتهاج. والسعادة، عند أبيقور، في اللذة الثابتة أو السالبة أي عندما لا تشعر بالألم أو بالقلق. ويعرفها بالأتاراسيا أو انعدام القلق، والأبونيا أي انعدام الألم. ويرد أبيقور على الذين يقولون باللذة الموجبة، أي المتحركة، بمقولته «ذروة اللذة في القضاء الخالص والبسيط على الألم.»

٤- البرهنة على أنه لا يمكن بلوغ الحدود القصوى للألم. بمعنى أنه، أي الألم، مؤقت ووجيز. وفي هذا الإطار، يقول أبيقور: «لا تستديم في الجسد الآلام، وتلك القصوى تبقى الوقت الأقل، ولا يستمر أيامًا طويلة ذلك التألم الذي لا يفوق اللذة الجسدية إلا قليلًا: بل على العكس من ذلك الأمراض الطويلة لها من اللذة في الجسد أكثر من الأوجاع.»

(١) وُلد ديوجينوس الكلبي سنة ٤١٣ ق.م في سينوب بآسيا الصغرى (بنطس). درس في أثينا على أنستانس، عمل والده في الصرافة وكان يزيّف النقود، وورث عن والده هذه الصنعة وحوّرها إلى تزييف مواضعات الناس وتقاليدهم واهتماماتهم الدنيوية. قيل عنه الكثير من الأقاويل والقصص والإشاعات. كان مسكنه جرة كبيرة لدفن الموتى، وعندما سُئِلَ عن موطنه أجاب بقوله: أنا مواطن عالمي. وسُئِلَ أيضًا عن سبب تردده على الأماكن الحقيرة؟ قال: إنّ الشمس أيضًا تدخل تلك الأماكن. أُقيم له بعد وفاته نصب في أعلاه تمثال كلب، والكلب هو شعار الجماعة التي أسّسها ديوجينوس الكلبي، يصور ديوجينوس بأنه جريء التفكير، مستقلّ الرأي، لاذع الحكم، مزدريًا للثروة والمراتب الاجتماعية، ميالًا إلى التقشف، فعندما رأى ولدًا يشرب براحة يديه كسر قصعته وقال: «هذا الولد يعلمني أني لا زلت أحتفظ بما يفيض عن حاجتي». =



البشرة بالشعر الكثيف، ثمّ لم يزل ينتقل من طور إلى طور، حتى وصل بالتدريج إلى ما نراه من الصورة الحسنة والخلق القويم، ولم يُقم دليلًا، ولم يستند على برهان فيما زعمه من أنّ مرور الزمان علّة لتبدّل الصور، وترقّي الأنواع.

ولما كشفت علوم الجيولوجيا «طبقات الأرض» عن بطلان القول بقدم الأنواع، رجع المتأخّرون من المادّيّين عنه إلى القول بالحدوث، ثم اختلفوا في بحثين:

الأوّل: بحث تكوُّن الجراثيم النباتيّة والحيوانيّة، فذهبت جماعة إلى أنّ جميع الجراثيم على اختلاف أنواعها، تكوّنت عندما أخذ التهاب الأرض في التناقص، ثمّ انقطع التكوّن بانقضاء ذلك الطور الأرضي، وذهبت أُخرى إلى أن الجراثيم لم تزل تتكوّن حتّى اليوم، خصوصًا في خط الاستواء حيث تشتدّ الحرارة.

وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياةً نباتيّة أو حيوانية، خصوصًا بعد ما تبيّن لهم أنّ الحياة فاعل في بسائط الجراثيم، موجب لالتئامها، حافظ لكونها، وأنّ قوّتها الجاذبة هي التي تجعل غير الحيّ من الأجزاء حيًّا بالتغذية، فإذا ضعفت الحياة، ضعف تماسك البسائط وتجاذبها، ثمّ صارت إلى الانحلال.

وظنّ قوم منهم: أنّ تلك الجراثيم كانت مع الأرض عند انفصالها عن كرة الشمس، وهو ظنّ عجيب، لا ينطبق على أصلهم[1] من أنّ الأرض عند الانفصال، كانت جذوة نارٍ ملتهبة، وكيف لم تحترق تلك الجراثيم، ولم تُمحَ صورها في تلك النيران المستعرة؟!

= وثق ديوجينوس بالجهد، ولا سيما الجهد العاقل، ومهمة الفلسفة أن «تختار الجهود الموائمة للطبيعة لكي تقيض للإنسان السعادة». فطريق الكلبية هو العقل الذي يعطي معنى للعمل الواجب القيام به، وتعويل الكلبية على العقل هو إشارة واضحة للانعتاق من الأحكام المسبقة والإصلاح الداخلي والفردي. هذه الفلسفة الكلبية التي عاشها ديوجينوس تعلن المواطنة العالمية، والسياسة فيها تتقيد بالفضيلة أكثر مما تتقيد بقوانين المدينة. ما قيل عن ديوجينوس أنه جاد وصارم وقوي الإرادة وزاهد، يسوّغ تأكيد هذا الاجتهاد، توفي سنة ٣٢٣ ق.م.

(١) أوردت نسخة دار الهلال «جهلهم» بدل «أصلهم» والأصح ما ورد في الطبعة الأولى.



والبحث الثاني من موضع اختلافهم: صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها إلى ذروة كمالها، وتحوّلها من حالة الخداج «النقص» إلى ما نراه من الصور المتقنة، والهيئات المحكمة، والبنى الكاملة. فمنهم: قائل بأنّ لكلّ نوع جرثومة خاصّة به، ولكلّ جرثومة طبيعية تميل بها إلى حركة تناسبها في الأطوار الحيويّة، وتجتذب إليها ما يلائمها من الأجزاء غير الحيّة ليصير جزءًا لها بالتغذية، ثمّ تجلوه بلباس نوعه.

وقد غفلوا عمّا أثبته التحليل الكيماوي، من عدم التفاوت بين نطفة الإنسان، ونطفة الثور والحمار مثلًا، وظهور تماثل النطف في العناصر البسيطة، فما منشأ التخالف في طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرها؟

ومنهم: ذاهب إلى أنّ جراثيم الأنواع كافّة - خصوصًا الحيوانية - متماثلة في الجوهر، متساوية في الحقيقة، وليس بين الأنواع تخالف جوهريّ، ولا انفصال ذاتيّ، ومن هذا ذهب صاحب هذا القول: إلى جواز انتقال الجرثومة الواحدة من صورة نوعيّة إلى صورة نوعيّة أُخرى بمقتضى الزمان والمكان، وحكم الحاجات والضرورات، وقضاء سلطان القواسر[1] الخارجيّة.

[قول داروين: «إنّ الإنسان كان قردًا»]

ورأس القائلين بهذا القول «داروين»[2]، وقد ألّف كتابًا في بيان: «أنّ الإنسان كان قردًا» ... ثمّ عرض له التنقيح والتهذيب في صورته بالتدريج على تتالي القرون المتطاولة، وبتأثير الفواعل الطبيعيّة الخارجيّة، حتى ارتقى إلى برزخ «أوران أوتان»[3]،

---

(١) معنى قسر في لسان العرب القَسْرُ القَهْرُ على الكُرْه.

(٢) تشارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م): فيلسوف وعالم إنجليزي اشتهر بنظريّته في علم الأحياء «نظريّة التطوّر»، وقد أودعها كتابه أصل الأنواع الذي أصدره سنة ١٨٥٩ م، وأتبعه بكتاب أصل الإنسان، وفيه يؤكّد هذه النظريّة. وقد سبق داروين في هذه النظرية العالم الانجليزي «ولاس» والفرنسي «لامارك». ونظريّة التطوّر أو الداروينيّة، هي التي تقول بأنّ الكائنات الحيّة جميعها نشأت من «أصل واحد» وأن الكائنات المعاصرة تسللت من كائنات أبسط منها. ولم يقل دارون: «إن الإنسان كان قردًا».

(٣) يُقال له «أورنج أوتـان» إنسان الغابة، أو سِعلاة أو سِعلاء والجمع سَعَالي، تبدو على وجهه بعض التعبيرات البشرية كالتفكير مثلًا ويحرك شفتيه الرقيقتين بأشكال مختلفه يعتقد أنها =



ثمّ ارتقى من تلك الصورة إلى أوّل مراتب الإنسان، فكان صنف اليميم[١] وسائر الزنوج، ومن هناك عرج بعض أفراده إلى أُفُق أعلى وأرفع من أُفق الزنجيّين، فكان الإنسان القوقاسي[٢].

وعلى زعم «داروين» هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلًا بمرور القرون وكرّ الدهور، وأن ينقلب الفيل برغوثًا كذلك.

فإن سُئِلَ «داروين» عن الأشجار القائمة على غابات الهند، والنباتات المتولّدة فيها من أزمان بعيدة لا يحدّدها التاريخ إلّا ظنًّا، وأُصولها تضرب في بقعة واحدة، وفروعها تذهب في هواء واحد، وعروقها تُسقى بماء واحد، فما السبب في

= طريقة للاتصال. يعيش هذا الحيوان حياة اجتماعية متماسكة قياديًا، ويزيد الذكر على الأنثى في الحجم بمعدل مرتين من حيث الثقل. حيث يزن الذكر ٧٧ كجم وتزن الأنثى ٣٧ كجم، ويبلغ طوله أربعة أقدام بينما تبلغ الأنثى نصف هذا الطول. وتتميز حركته من أرجحة الأذرع إلى تعليق أنفسهم بالأذرع والأرجل معًا. يتغذى رئيسيًا على الفواكه كالمانجو والتين وأيضًا الحشرات كالنمل والنحل وأحيانًا بتناول أوراق الأشجار وفروعها ويعيش في الغابات الممطره الإستوائية وجزيرتي سومطره وبورنيو. [مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التي أقرها مجمع اللغة العربية في مصر، المجلد السابع والثلاثين، سنة ١٩٩٨، الصفحة ٣١٤. أمين معلوف، **معجم الحيوان** (بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨٥)، الصفحة ١٥ و ١٧٥].

(١) ليس بين الزنوج قبيلة - من أكلة اللحوم - قبيلة تسمّى بهذا الاسم. ولعلّ الأصل «نيام نيام» أو «نيمنيم»، وهم قبيلة من الزنوج، تعيش في المنطقة التي تمتدّ بين بحر الغزال على النيل الأعلى ونهر الكنغو. وقد اشتهروا بأنّهم يأكلون لحوم البشر، ولكن هذه العادة بادت الآن، وهم يمارسون حاليًا الزراعة والصناعات الأوّلية.

(٢) يعتقد أغلب الناس أن هذا الجنس نشأ في بلاد إسكنديناڤيا، وهذا الاعتقاد فيه بعض الخطأ... لأنّ الجنس القوقازي الأبيض نشأ في العصر الجليدي الأخير، وبلاد شمال أوروبا ومنها إسكندنافيا وبريطانيا، كانت صحاري ومجلدات قاحلة، لا حياة فيها.... ولذا نشأت هذه السلالة البشرية في جنوب أوروبا في جنوب فرنسا وفي إيطاليا وإسبانيا.. وسبب نشوئها هو نقص حاد في فيتامين «د D» بسبب قلة قوة أشعة الشمس وبعدهم عن منتجات البحار الغنية به، ونقص فيتمين دال، لا يؤدي فقط إلى الكساح والاحواض المسطحة عند النساء، بل إضطرابات شديدة في كافة أعضاء الجسم. ولذا، تحولت جلودهم من اللون الأسود إلى الأبيض تدريجيًا، وقد استخرج مؤخرًا الحمض النووي لرجل عاش قبل ٧ ألف سنة كما اعتقد واتضح أنّ عينيه زرقاوان ولون جلده به بعض السمرة.



اختلاف كلٍّ منها عن الآخر في بنيته وأشكال أوراقه، وطوله وقصره، وضخامته، ورقّته، وزهره، وثمره، وطعمه ورائحته، وعمره؟ فأيّ فاعل خارجيّ أثّر فيها، حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء؟ أظنّ [أن] لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه..

وإن قيل له: هذه أسماك بحيرة «أُورال»[١] وبحر «كسين»[٢] مع تشاركها في المأكل والمشرب، وتسابقها في ميدان واحد، نرى فيها اختلافًا نوعيًّا، وتباينًا بعيدًا في الألوان، والأشكال والأعمال، فما السبب في هذا التباين والتفاوت؟ فلا أراه يلجأ في الجواب إلّا إلى الحَصَر[٣]..

وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى[٤] والصور والقوى والخواصّ، وهي تعيش في منطقة واحدة، ولا تسلم حياتها في سائر المناطق، أو الحشرات المتباينة في الخِلْقة، المتباعدة التركيب، المتولّدة في بقعة واحدة، ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة لتجلو إلى «تربة» تخالف تربتها، فماذا تكون حجّته في علّة اختلافها، كأنّها تكون كسفًا[٥] لا كشفًا؟[٦].

بل إذا قيل له: أيّ هادٍ هدى تلك الجراثيم في نقصها وخِداجها[٧]؟ وأيّ مرشد أرشدها إلى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على

---

(١) هو بحر داخلي يقع في آسيا الوسطى بين أوزبكستان جنوبًا وكازاخستان شمالاً، ويحتلّ أخفض أجزاء حوض طوران الواسع، عرفه جغرافيو العرب ببحر خوارزم، وأطلق عليه الروس في القرن السابع عشر اسم البحر الأزرق.

(٢) المقصود هنا بحر قزوين، وهو بحر مغلق يقع في غرب آسيا على مساحة تبلغ ٣٧١,٠٠٠ كيلو متر مربع وهو أكبر بحر مغلق في العالم، يبلغ طول بحر قزوين ١,٢٠٠ كيلو متر بعرض يصل لـ ٣٠٠ كيلو متر، ويبلغ أقصى عمق له١٠٢٣ م، وتطل على بحر قزوين خمسة دول هي روسيا وإيران وأذربيجان وتركمانستان وكازاخستان.

(٣) الحَصَر - بتحريك الحاء والصاد - العجز عن البرهان والكلام.

(٤) جمع بنية.

(٥) معنى كَسَفَت في المعجم الوسيط الشَّمسُ كُسُوفًا: احتجبت وذهب ضوؤها

(٦) اعتمد داروين في نظرية التطور على التكوين التشريحي للأحياء، وإن كانت تتفاوت وتتباين في المظهر. وقد ساعد على رواج هذه النظرية علم الحفريات وعلم الوراثة.

(٧) الخداج النقصان أيضًا، وأخدج الشيء نقص.



مقتضى الحكمة، وأبدع لكلٍّ منها قوّة على حسبه، ونوطها[١] بكلّ قوّة في عضو أداء وظيفة، وإيفاء عمل حيويّ؛ ممّا عجز الحكماء عن درك سرّه، ووقف علماء الفسيولوجيا[٢] دون الوصول إلى تحديد منافعه؟ وكيف صارت الضرورة العمياء، معلّمًا لتلك الجراثيم، وهاديًا خبيرًا لطرق جميع الكمالات الصوريّة والمعنوية؟ لا ريب أنه يقبع قبوع القنفذ، وينتكس بين أمواج الحيرة يدفعه ريب، ويتلقّاهُ شكّ، وإلى أبد الآبدين.

وكأنّي بهذا المسكين وما[٣] رماه في مجاهل الأوهام ومهامة[٤] الخرافات إلّا قرب المشابهة بين القرد والإنسان، وكأنّ ما أخذ به من الشُّبه الواهية أُلْهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة، وحسرات العماية، وإنّا نورد شيئًا ممّا تمسّك به: فمن ذلك أنّ الخيل في سيبيريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرًا من الخيل المتولّدة في البلاد العربيّة، وإنّما علّة ذلك الضرورة وعدمها.

ونقول: إنّ السبب فيما ذكرهُ هو عين السبب لكثرة النبات وقلّته في بقعة واحدة، لوقتين مختلفين، حسب كثرة الأمطار وقلّتها، ووفور المياه ونزورها، أو هو علّة النحافة ودقّة العود، في سكان البلاد الحارّة، والضخامة والسمن في أهل البلاد الباردة بما يعتري البدن من كثرة التحلّل في الحرارة، وقلّته في البرودة.

ومن واهياته ما كان يرويه «داروين»: من أنّ جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم، فلمّا واظبوا على عملهم هذا قرونًا، صارت الكلاب تولد بلا أذناب، كأنه يقول: حيث لم تعد للذَّنَب حاجة كفّت الطبيعة عن هبته... وهل صُمّت أُذُن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيّين والعرب، ومما يجرونه من الختان أُلوفًا من السنين، ولا يولد مولود حتّى يُختن، وإلى الآن لم يولد واحد منهم مختونًا إلّا لإعجاز؟!

---

(١) من فعل «ناط»، ويقال: ناط الأمر بفلان عهد اليه. وقد وردت في تحقيق خسروشاهي: أناط.

(٢) الذين يدرسون وظائف أعضاء الكائن الحي سواء كان إنسان أو حيوان نبات.

(٣) حذف خسروشاهي الواو.

(٤) المهامة جمع مهمة: وهي الصحراء لواسعة التي يهلك عابرها، فإذا عبرها بسلام فاز بحياته ونجا ولذا سميت مفازة.




ولما ظهر لجماعة من متأخّري المادّيين فساد ما تمسّك به أسلافهم، نبذوا آراءهم وأخذوا طريقًا جديدة، فقالوا: ليس من الممكن أن تكون المادّة العارية عن الشعور، مصدرًا لهذا النظام المتقن، والهيئة البديعة والأشكال المعجبة، والصور الأنيقة، وغير ذلك ممّا خفي سرّه وظهر أثره، ولكن العلّة في نظام الكون عُلويّة وسُفليّة، والموجب لاختلاف الصور والمقدّر لأشكالها وأطوارها، وما يلزم لبقائها، تتركّب من ثلاثة أشياء: «متيير»، و«فورس»، و«انتليجانس»؛ أي مادّة، وقوّة، وإدراك.

وظنّوا أنّ المادّة بما لها من القوّة، وما يلابسها من الإدراك، تجلّت وتتجلّى بهذه الأشكال والهيئات، وعندما تظهر بصورة الأجساد الحيّة نباتيّة كانت أو حيوانيّة تُراعي بما لابسها من الشعور، ما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع، فتنشىء لها من الأعضاء والآلات ما يفي بأداء الوظائف الشخصيّة والنوعيّة، مع الالتفات إلى الأزمنة والأمكنة، والفصول السنويّة.

هذا أنفس ما وجدوا من حيلة لمذهبهم العاطل، بعدما دخلوا ألف جُحُر، وخرجوا من ألف نفق، وما هو بأقرب إلى العقل من سائر أوهامهم، ولا هو بالمنطبق على سائر أصولهم، فإنّهم يرون كسائر المتأخّرين أنّ الأجسام مركّبة من الأجزاء الديمقراطيسيّة، ولا ينطبق رأيهم الجديد في علّة النظام الكوني على رأيهم في تركيب الأجسام. وذلك لأنه يلزم على القول بشعور المادّة، أن يكون لكلّ جزء ديمقراطيسيّ شعور خاصّ، كما يلزم أن تكون له قوّة خاصّة ينفصل بها عن سائر الأجزاء؛ إذ لا يمكن قيام العَرَض الواحد وحدة شخصيّة بمحلّين، فلا يقوم علم واحد بجزأين ولا بأجزاء، وبعد هذا فإنّي سائلهم[١]: كيف اطلّع كلّ جزء من أجزاء المادة مع انفصالها على مقاصد سائر الأجزاء؟ وبأيّة آلة أفهم كلٌّ منها باقيها ما ينويه من مطلبه؟ وأيّ برلمان «مجلس الشورى»، أو أيّ «سنات» «مجلس الشيوخ» عقدت للتشاور في إبداع هذه المكوّنات العالية التركيب، البديعة التأليف؟! وأنّى لهذه الأجزاء أن تعلم وهي في بيضة العصفور، ضرورة ظهورها في هيئة طير يأكل الحبوب، فمن الواجب أن يكون له منقار وحوصلة لحاجته في حياته إليهما؟! وإذا كانت في بيض الشاهين والعقاب، فمن أين لها العلم بأنها تقوّم طيرًا يأكل اللحوم،

---

(١) ورت في تحقيق خسروشاهي «أسائلهم».




فلا بدّ له من منسر[١] ومخلب[٢] يصول بهما في الصيد؛ لاقتناص ما يحتاج إليه من حيوان، ثم ينسر لحمه ليأكله؟!

ومن أين لها أن تعلم، وهي في مشيمة الكلبة، أنّها ستكون على صورة أُنثى الجرو، ثمّ تكبر حتى تبلغ حدّ الإدراك، ثمّ تكون حبلى لوقت من الأوقات، وقد تلد أجراء متعددة في زمن واحد، فهى تهيىء لطبيها[٣] حلمات كثيرة على حسب حاجة أجرائها؟!

ومن لهذه الأجزاء المتبدّدة أن تُدرك حاجة الحيوانات إلى القلب والرئة، والمخّ والمخيخ، وسائر الأعضاء والجوارح؟!

لو عقلت هذه الطائفة ما رمى إليه سؤالي هذا لارتكست[٤] في أفكارها، وانقلبت إلى تيهور[٥] من الحيرة، لا ترفع منه رأسًا، ولا تحير جوابًا، إلى أن يتخبّطهم شيطان الجهل، فيقولون ولا يعون: إنّ لكلّ جزء من هذه الأجزاء الديمقراطيسيّة، علمًا بجميع ما كان وما يكون، وبجميع ما في العالم من الأجزاء، عُلويًّا كان أو سفليًا، ولكلٍّ منها حرص على مراعاة نظام الكون وأركانه، فيتحرّك كلّ منها للانضمام إلى الآخر، على وفق ما يريده من المصلحة؛ حتى لا يقع الخلل في شيء من نظم العالم، عامًا كان أو خاصًّا، وبهذا قام العالم على ناموس واحد.

فإن أفضت بهم العماية إلى هذا القول قلنا:

أوّلًا: يلزمهم أنّ كلّ جزء «ديمقراطيسيّ» يحتوي على أبعاد غير متناهية، وهو في صغره لا يُدرَك ولا بالمكرسكوب «النظارة المعظمة». وبيان اللزوم: أنّ العلم

---

(١) ما يقطع به الطائرُ الجارح الأشياءَ، يتميّز بقوته وبقواطعه الحادّة وبطرفٍ مستدقٍّ معقوف، وهو له كالمنقار لغير الجارح من الطيور.

(٢) ظُفُرُ كلِّ سَبُعٍ من الماشي والطائر.

(٣) الطِّبي – بكسر الطاء وضمّها – واحد الأطْباء، وهي حلمات الضرع، والضرع مَدَرّ اللبن، وهو كالثدي للإنسان، ولعلّ الأصل: «وهي تهيّئ لضرعها حلمات»، وهو الصحيح.

(٤) ركس الشيء: قلب أوّله على آخره، وأركسه نكسه، وارتكس المرء أو الشيء انتكس وارتبك.

(٥) التيهور: التيه الذي يضلّ فيه الإنسان على وزن «تنّور». والتَّيْهُور: ما اطْمَأَنَّ من الأرض. قال الأزهريُّ: هو فَيْعُولٌ مِن الوَهْر، قُلِبَت الواوُ تاءً، وأصلُه وَيْهُورٌ.



عندهم، إنّما هو بارتسام الصور المعلومة في ذات العالم، وهو ماديّ في موضوعنا، فكلّ صورة معلومة تأخذ منه بُعدًا بمقدارها، والصور العلميّة على هذا الزعم غير متناهية، وكلّها يرتسم في مادّة الجزء العالم، فيكون في كلّ جزء، وهو متناهٍ إلى غاية الصِّغر أبعاد غير متناهية للصور غير المتناهية، وهذا ممّا تُبطله بداهة العقل.

وثانيًا: إن كانت الأجزاء «الديمقراطيسيّة» بالغة من العلم هذا المبلغ، وهي من القوّة على نحوه؛ إذ لا قوّة إلّا بها على رأيهم، فلماذا لم تبلغ الكائنات وهي هي غاية ما يمكن لها من الكمال؟ ولِمَ تُنزل بذواتها الآلام والأوصاب[١]، ثمّ تعاني العناء في احتمالها أو التخلّص منها؟ ولم[٢] قصر إدراك الإنسان، وإدراك سائر الحيوانات وهو عين إدراك هذه الأجزاء على هذا المذهب عن اكتناه حالها أنفسها، وعجز عن حفظ حياتها؟

وأعجب من هذا أنّ المتأخّرين من الماديّين بعد ما صافحوا كلّ خرافة لتأييد مذهبهم، حاصوا[٣] إلى الحيرة في بعض الأُمور فلم يستطيعوا تطبيقها على أصل من أُصولهم الفاسدة؛ لا أصل الطبع، ولا أصل الشعور، وذلك عندما رأوا شيئين يختلفان في الخواصّ، وعناصرهما تظهر عند التحليل متماثلة، ولم يجدوا المحيص عن الوقفة بعدما قدّموا من الترهات إلّا بالحكم على الأجزاء «الديمقراطيسيّة» رجمًا بالغيب، بأنّها ذوات أشكال مختلفة، وعلى حسب الاختلاف في الأشكال والأوضاع كان الاختلاف في الآثار والخواصّ.

وبالجملة: فهذه عشرة مذاهب اختلف إليها منكرو الأُلوهيّة، الزاعمون أنّ لا وجود للصانع الأقدس، وهم المعروفون بين شيعهم أو عند الإلهيين بالطبيعيّين، والماديّين، والدهريّين، وإن شئت قلت: نيشريّين، وناتوراليسميين، وماتيرياليسميّين.

وسنأتي على تفصيل مذاهبهم، ودحض حججها بالبيّنات العقليّة، في رسالة

---

(١) الأوصاب جمع وصب، والوصب: الوجعُ والمرضِ.

(٢) في تحقيق خسروشاهي «لماذا».

(٣) حاص عن كذا: حاد وعدل عنه. يقولون «من حاص عن الشر سلم»، و«وقع في حيص بيص»؛ أي في مشكل لا مخرج منه.



أوسع من هذه إن شاء اللّه تعالى. ولا يظنن ظان أنّا نقصد من مقالنا هذا تشنيعًا بهؤلاء «البياجوات الهنديين» (البياجو: اسم «إيطالياني» اشتهر في الهند لمن يقلّد الماهر في اللعب بحركات غير منسقة لإضحاك الناظرين، ويعبّر عنه في العربيّة بالخلابيس، وأصله الشيء [الذي] لا نظام له. والطبيعيّون في الهند يمثّلون أحوال الدهريّين في أُوروبا تمثيلًا مضحكًا) كلّا إنّ هؤلاء لا نصيب لهم من العلم، بل ولا من الإنسانيّة، فهم بعيدون من مواقع الخطاب، ساقطون عن منزلة اللوم والاعتراض.

نعم لو أريد إنشاء تياترو «ملهى» أو «كطبتلي» (نوع من اللعب يشخّصون فيه أحوال ملوك الهند الأقدمين)؛ لتمثّل فيه أحوال الأُمم المتمدّنة، مسّت الحاجة إلى هؤلاء لإقامة هذه الألاعيب، وإنّما غرضنا الأصلي إعلان الحقّ وإظهار الواقع.

والآن نعتمد الشروع في بيان المفاسد التي جلبها الماديّون «النيشريّون» على نظام المدنيّة، والمضارّ التي تضعضع لها بناء الهيئة الاجتماعيّة، وكان منشؤها فشو[١] أفكارهم.

---

(١) ذيوع.



[الفصل الثاني]

مظاهر الماديّين ومقاصدهم[١]

تخالفت مظاهر المادّيّين في الأُمم والأجيال المختلفة، فتخالفت أسماؤهم، فكانوا تارة يسمون أنفسهم بسِمات الحكماء، وينتحلون «الحكيم» لقبًا لأفرادهم، وأحيانًا كانوا يتّسمون بسيماء: «دافع الظلم ورافع الجور». وكثيرًا ما تقدموا لمسارح الأنظار تحت لباس «عرّاف الأسرار وكشفة الحقائق والرموز، والواصلين من كلّ ظاهر إلى باطنه، ومن كلّ بارز إلى كامنه».

وقد كانوا يظهرون في أوقات بدعوى السعي في تطهير الأذهان من الخرافات، وتنوير العقول بحقائق المعلومات، وتارات يتمثّلون في صور «محبّي الفقراء، وحماة الضعفاء، وطلّاب خير المساكين» وكثيرًا ما تجرّأوا على دعوى[١] النبوّة، ولكن لا على سنن سائر المتنبّئين الكذبة.

كلّ ذلك توسّلًا لإجراء مقاصدهم، وترويج مفاسدهم..

كيفما ظهر المادّيون، وفي أي صورة تمثّلوا، وبين أيّ قوم نجموا، كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم، وصاعقة مجتاحة لثمار أُممهم، وصدعًا متفاقمًا في بِنية جيلهم، يُميتون القلوب الحيّة بأقوالهم، وينفثون السمّ في الأرواح بآرائهم، ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم، فما رُزئـت[٢] بهم أُمّة، ولا مُني بشرّهم جيل، إلاّ انتكث فتله، وسقط عرشه، وتبدّدت آحاد الأُمة، وفقدت قوام وجودها..!

---

(١) أورد خسروشاهي «ادعاء» بدل «دعوة».

(٢) أُصِيبَ بِرُزْءٍ: المُصِيبَةُ العَظِيمَةُ شَدِيدَةُ الوَطْأَةِ.



كان الإنسان ظلومًا جهولًا[١]، وخُلق الإنسان هلوعًا، إذا مسّه الشرّ جزوعًا، وإذا مسّه الخير منوعًا[٢]. جُبل الإنسان على الحرص، وكأنه منهوم لشرب الدماء، لم يحرم الإنسان من لطف مبدعه، فكما أبدعه ألزم الدين وجوده، فتمسّك الناس منه بأُصول، وانطبعوا به على خصال، توارثها الأبناء عن الآباء في قرون بعد قرون. ومهما غيّروا وبدّلوا كانت بقايا ما ورثوه لا تزال تشرق على عقولهم بأنوار من المعرفة، يهتدون بها إلى سعادتهم ويُقيمون في ضوئها أساس مدنيّتهم، ولم يبطل أثرها في تعديل أخلاقهم، وكفّ أيديهم عن التطاول إلى الشرور والمفاسد، وبهذا كان للأقدمين من أهل القرون الأُولى ما كان لهم من نوع الثبات والبقاء.

وطائفة النيشريّة كلّما ظهرت في أُمة سعت في قلع تلك الأُصول، وإفساد تلك الخصال، حتّى إذا لمع لها بارق من النجاح، وهت أركان الأمّة، وانهارت إلى هوّاءة[٣] الاضمحلال والعدم. وهذه الطائفة هي الآن كما كانت تسلك منهج أسلافها الأوّلين، وإنّا نوضّح ذلك بمجمل من البيان.

ما أفاد الدين من العقائد والخصال

أكسب الدينُ عقولَ البشر ثلاثَ عقائد، وأودع نفوسهم ثلاث خصال، كلٌّ منها ركن لوجود الأُمم، وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية، وأساس محكم لمدنيتها، وفي كلٍّ منها سائق يحثّ الشعوب والقبائل على التقدّم لغايات الكمال والرقيّ إلى ذُرى السعادة، وفي كلّ واحدة وازع قويّ يباعد النفوس عن الشرّ، ويردعها عن مقارفة الفساد، ويصدّها عن مقاربة ما يبيدها ويبدّدها.

العقيدة الأولى: التصديق بأنّ الإنسان مَلَك أرضيّ، وهو أشرف المخلوقات.

والثانية: يقين كلّ ذي دين بأنّ أُمته أشرف الأُمم، وكلّ مخالف له فعلى ضلال وباطل.

---

(١) دلالة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (سورة **الأحزاب**، الآية ٧٢).

(٢) دلالة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ (سورة **المعارج**، الآيات ١٩-٢١).

(٣) الهُوَّاءةُ: الوَهدةُ الغامضةُ من الأرض؛ كالهُوّة وقد أوردها خسروشاهي «هوان».



والثالثة: جزمه بأنّ الإنسان إنّما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيّئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي، والانتقال به من دار ضيّقة الساحات كثيرة المكروهات، جديرة أن تسمّى بيت الأحزان وقرار الآلام إلى دار فسيحة الساحات، خالية من المؤلمات، لا تنقضي سعادتها، ولا تنتهي مُدّتها.

ولا يغفل العاقل عمّا يتبع هذه العقائد الثلاث من الآثار الجليلة في الاجتماع البشري، والمنافع الجمّة في المدنيّة الصحيحة، وما يعود منها بالإصلاح على روابط الأُمم، وما لكلّ واحدة من الدَّخْل في بقاء النوع، والميل بأفراده لأن يعيش كلٌّ منهم مع الآخر بالمسالمة والموادعة، والأخذ بهمم الأُمم للصعود في مراقي الكمال النفسي والعقلي.

[لكلّ عقيدة لوازم وخواصّ]

من البيّن أنّ لكلّ عقيدة لوازم وخواصّ لا تزايلها.

[**العقيدة الأولى**] فما يلزم الاعتقاد بأنّ الإنسان أشرف المخلوقات يرفع المعتقد بحكم الضرورة عن الخصال البهيميّة، واستنكافه عن ملابسة الصفات الحيوانية، ولا ريب أنّه كلّما قوي هذا الاعتقاد، اشتدّ به النفور من مخالطة الحيوانات في صفاتها، وكلّما اشتدّ هذا النفور سما بروحه إلى العالم العقلي، وكلّما سما عقله أوفى على المدنية، وأخذ منها بأوفر الحظوظ، حتّى قد تنتهي به الحال إلى أن يكون واحدًا من أهل المدنيّة، يحيى مع إخوانه الواصلين معه إلى درجته على قواعد المحبّة، وأُصول العدالة، وتلك نهاية السعادة الإنسانيّة في الدنيا، وغاية ما يسعى إليه العقلاء والحكماء فيها.

فهذه العقيدة أعظم صارف للإنسان عن مضارعة الحُمُر الوحشيّة في معيشتها، والثيران البرّيّة في حالتها، ومضاربة البهائم السائمة، والدوابّ الهاملة، والهوامّ الراشحة لا تستطيع دفع مضرّة، ولا التقيّة من عادية، ولا تهتدي طريقًا لحفظ حياتها، وتقضي آجالها في دهشة الفزع ووحشة الانفراد.

هذه العقيدة أشدّ زجرًا لأبناء الإنسان عن التقاطع المؤدّي لافتراس بعضهم بعضًا، كما يقع بين الأُسود الكاسرة، والوحوش الضارية، والكلاب العاقرة، وأشدّ مانع يدفع صاحبها عن مشاكلة الحيوانات في خسائس الصفات، وهذه العقيدة

أحجى حادٍ للفكر[١] في حركاته، وأنجح داعٍ للعقل في استعمال قوّته، وأقوى فاعل في تهذيب النفوس وتطهيرها من دنس الرذائل.

إن شئت فارمِ بنظر العقل إلى قوم لا يعتقدون هذا الاعتقاد، بل يظنّون أنّ الإنسان حيوان، كسائر الحيوانات، ثمّ تبصّر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل، وإلى أيّ حدّ تصل بهم الشرور، وبأيّ منزلة من الدناءة تكون نفوسهم، وكيف أنّ السقوط إلى الحيوانيّة يقف بعقولهم عن الحركات الفكريّة.

[العقيدة الثانية] ومن خواصّ يقين الأُمة بأنّها أشرف الأُمم، وجميع من يخالفها على الباطل، أن ينهض آحادها لمكاثرة الأُمم في مفاخرها، ومساملتها في مجدها[٢]، ومسابقتها في شرائف الأُمور، وفضائل الصفات، وأن يتّفق جميعها على الرغبة في فوت جميع الأُمم، والتقدّم عليها في المزايا الإنسانيّة، عقليّة كانت أو نفسيّة، ومعاشيّة كانت أو معادية.

وتأبى نفس كلّ واحد عن إعطاء الدنيّة، والرضا بالضيم لنفسه، أو لأحد من بني أُمّته، ولا يسرّه أن يرى شيئًا من العزّة أو مقامًا من الشرف لقوم من الأقوام، حتّى يطلب لأُمّته أفضله وأعلاه.

ذلك أنه بهذا الاعتقاد يرى أبناء قومه أليق وأجدر بكلّ ما يعدّ شرفًا إنسانيًّا، فإن جارت صروف الدهر على قومه فأضرعتهم[٣] أو ثلمت مجدهم[٤]، أو سلبتهم مزيّة من مزايا الفضل، لم تستقرّ له راحة، ولم تنشأ له حميّة، ولم يسكن له جَيَشان، فهو يُمضي حياته في علاج ما ألمّ بقومه حتّى يأسوه[٥]، أو يموت في أساه.

فهذه العقيدة أقوى دافع للأُمم إلى التسابق لغايات المدنيّة، وأمضى الأسباب بها إلى طلب العلوم، والتوسّع في الفنون، والإبداع في الصنائع، وإنّها لأبلغ في سَوق الأُمم إلى منازل العلاء، ومقاوم الشرف، من غالب قاسر، ومستبدّ قاهر عادل.

---

(١) أي: أخلق وأجدر سائق للفكر.

(٢) السعي بالصلاح

(٣) من الضراعة، وهي الاستكانة والمسكنة والذلّة.

(٤) أَحْدَثَ فِيهِ شَقًّا أَوْ شَرْخًا.

(٥) داواه وعالجه.



وإن أردت فالمحْ بعقلك حال قوم فقدوا هذا اليقين. ماذا تجد من فتور في حركات آحادهم نحو المعالي؟ وماذا ترى من قصور في هممهم عن درك الفضائل؟ وماذا ينزل بقواهم من الضعف؟ وماذا يحلّ بديارهم من الفقر والمسكنة؟ وإلى أيّ هُوّة يسقطون من الذلّة والهوان، خصوصًا إذا بغى عليهم الجهل، فظنّوا أنهم أدنى من سائر الملل، كطائفة «الدهير» و«مانك»[١]؟

[**العقيدة الثالثة**] ومن مقتضيات الجزم بأنّ الإنسان ما ورد هذا العالم إلّا ليتزوّد منه كمالًا يعرج به إلى عالم أرفع، ويحلّ به إلى دار أوسع، وجناب أمرع[٢]؛ ليمرع واديه وتجنى حلبه.

إنّ من أُشربت هذه العقيدةُ قلبَه، ينبعث بحكمها وينساق بحاديها لإضاءة عقله بالعلوم الحقّة، والمعارف الصافية؛ خشية أن يهبط به الجهل إلى نقص يحول دون مطلبه، ثمّ ينصرف همّه لإبراز ما أودع فيه من القوّة السامية، والمدارك العقليّة، والخواصّ الجليلة، واستعمالها فيما خُلقت له، فيتجلّى كماله من عالم الكمون إلى عالم الظهور، ويرتقي من درجة القوة إلى مكانة الفعل، فهو ينفق ساعاته في تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل، ولا يناله التقصير في تقويم ملكاته النفسيّة، وينزع لكسب المال من الوجوه المشروعة، متنكّبًا عن طرق الخيانة، ووسائل الكذب والحيلة، معرضًا عن أبواب الرشوة، مترفّعًا عن الملق[٣] الكلْبي، والخداع الثعلبي، ثمّ يُنفق ما كسب في الوجه الذي يليق، وعلى الوجه الذي ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي، لا يأتي فيه باطلًا، ولا يغفل حقًا عامًّا أو خاصًّا.

فهذه العقيدة أحكم مرشد وأهدى قائد للإنسان إلى المدنيّة الثابتة، المؤسّسة على المعارف الحقّة، والأخلاق الفاضلة، وهذا الاعتقاد أشدّ ركنًا لقوام

---

(١) يقول الأفغاني: «من سكنة الأقطار الهندية المعروفين عند الاوروبيين بطائفة «باريا» انظر: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، **العروة الوثقى والثورة التحررية الكبرى** (القاهرة: دار العرب، الطبعة١، ١٩٥٧)، الصفحة ٦٥.

(٢) المَرِيعُ: الخَصِيبُ، ج: أَمْرُعٌ، وأَمْراع، وفي المَثَلِ: أَمْرَعَ وادِيهِ وأَجْنَى حُلَّبُهْ.

(٣) تودد إليه ولين كلامه وتذلل، وأبدى له من الود ما ليس في قلبه، تضرع له فوق ما ينبغي، داهنه ملق لرئيسه / رئيسه طمعًا في ترقية.



الهيئة الاجتماعيّة، التي لا عماد لها إلّا معرفة كلّ واحد حقوقه وحقوق غيره عليه، والقيام على صراط العدل المستقيم.

هذا الاعتقاد أنجح الذرائع لتوثيق الروابط بين الأُمم؛ إذ لا عقد لها إلا مراعاة الصدق، والخضوع لسلطان العدل في الوقوف عند حدود المعاملات. هذا الاعتقاد نفحة من روح الرحمة الأزليّة، تهبّ على القلوب ببرد الهدون[١] والمسالمة، فإنّ المسالمة ثمرة العدل والمحبّة، والعدل والمحبّة زَهْر الأخلاق والسجايا الحسنة، وهي غِراس تلك العقيدة التي تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور، وتنجيه من متائه الشقاء، وتعاسة الجَدّ، وترفعه إلى غُرف المدينة الفاضلة، وتجلسه على كرسيّ السعادة.

وقد يسهل عليك أن تتخيّل جيلًا من الناس حرم هذه العقيدة، فكم يبدو لك فيه من شقاق، وكذب ونفاق، وحيل وخداع، ورشوة واختلاس.

وكم يغشى نظرك من مشاهد الحرص والشره، والغدر والاغتيال وهضم الحقوق والجدال والجلاد. وكم تحسّ من جفاء للعلم، وعشوة عن نور المعرفة.

الخصال[٢] الثلاث

وأمّا الخصال الثلاث التي توارثتها الأمم من تاريخ قد لا يحّد قدمًا، وإنما طبعها في نفوسهم طابع الدين.

فإحداها: خصلة الحياء: وهو انفعال النفس من إتيان ما يجلب اللائمة، وينحى عليها بالتوبيخ، وتأثّرها من التلبّس بما يعدّ عند الناس نقصًا، وفي الحقّ أن يقال: إنّ تأثير هذه الخَلّة في حفظ نظام الجمعيّة البشريّة، وكفّ النفوس عن ارتكاب الشنائع، أشدّ من تأثير مئين[٣] من القوانين، وآلاف من الشُّرَط والمحتسبين؛

---

(١) معنى هَدَنَ في المعجم الوسيط فلانٌ ـِ هُدُونًا: سكن.

(٢) الخصلة: هي الخَلّة بفتح الخاء سواء أكانت فضيلة أم رذيلة، وقد غلبت على الفضيلة. وقد عرف الشيخ محمد عبده الفضائل في مقال له بأنّها سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها كالحياء والسخاء والعفة.

(٣) المئين هي سور القرآن التي تبلغ آياتها مئة آية أو ما يقاربها

فإنّ النفوس إذا مزّقت حجاب الحياء، وسقطت إلى حضيض الخِسّة والدناءة، ولم تبالِ بما يصدر عنها من الأعمال، فأيّ عقاب يردّها عن المفاسد التي تُخلّ بنظام الاجتماع، سوى القتل؟! وقد لاحظ ذلك «سولون»[١] حكيم اليونان حيث جعل القتل جزاء كلّ عمل قبيح، حتّى الكذبة الواحدة.

وخَلّة الحياء يلازمها شرف النفس، وهو ممّا تدور عليه دائرة المعاملات، وتتّصل به سلسلة النظام، وهو مناط صحّة العقول، والتزام أحكامها، وهو معصم الوفاء بالعهود، وهو رأس مال الثقة بالإنسان في قوله وعمله.

وشيمة الحياء هي بعينها شيمة الإباء، وسجيّة الغيرة، وإنما تختلف أسماؤها باختلاف جهاتها وآثارها في ردع النفس عن شيء، أو حملها على عمل.

والإباء والغيرة: هما مبعث حركات الأُمم والشعوب لاستفادة العلوم والمعارف، وتسنّم قمم الشرف والرفعة، وتقوية الشركة وبسط جناح العظمة، وتوفير موادّ الغنى والثروة.

وكلّ أُمة فقدت الغيرة والإباء حرمت الترقّي؛ وإن تسنّى لها من أسبابه ما تسنّى، فهي تعطي الدنيّة، ولا تأنف من الخِسّه، وتضرب عليها الذلّة والمسكنة حتى ينقضي أجلها من الوجود.

وملكة[٢] الحياء تنتهي إليها روابط الأُلفة بين آحاد الأُمّة في معاشراتهم ومخالطاتهم، فإنّ حبال الأُلفة إنّما يحكمها حفظ الحقوق، والوقوف عند الحدود، ولا يكون ذلك إلّا بهذه الملكة الكريمة.

هذه سجيّة تزين صاحبها بالآداب، وتنفر به عن الشهوات البهيميّة، وتُفيض روح الاعتدال على حركاته وسكناته وجميع أعماله.

وهذا هو الخلق الفرد الذي ينهض بصاحبه لمجاراة أرباب الفضائل،

---

(١) سولون (٦٤٠ - ٥٦٠ ق.م) مشترع يوناني شاعر ورجل قانون أثيني قام بسن مجموعة من القوانين الإصلاحية والتي تعارضت مع نظام الدولة المتبع آنذاك ورغم أن إصلاحاته فشلت فيما بعد إلا أنه يعتبر الممهد لقيام ما تم تسميته لاحقا بالنظام الأثيني الديمقراطي.

(٢) أورد خسرشاهي «خلة» بدل «ملكة».



ويتجافى به عن مضاجع النقائص، ويأنف به عن الرضا بالجهل والغباوة، أو الضِّعة والضراعة[١].

هذا الوصف الكريم، هو منبت الصدق، ومغرس الأمانة، وهما معه في قَرَن[٢].

هذا الوصف هو آلة المعلّمين والقائمين على التربية، والدعاة لمكارم الأخلاق، والمولعين بترقية الفضائل صوريّة ومعنويّة يستعملونها في نصائحهم، يذكّرون بها الغافل، ويحرّضون الناكل[٣]، ويوقظون النائم، ويقعدون القائم؛ ألا ترى المعلّم الحكيم كيف يعظ تلميذه بقوله: «ألا تستحي من تقدّم قرينك عليك، وتخلّفك عنه»؟!

فإن لم تكن هذه الخصلة فلا أثر للتوبيخ، ولا نفع للتقريع، ولا نجاح للدعوة، فانكشف مما بيّنّا: أنّ هذه الخَلّة مصدر لجميع الطيّبات، ومرجع لكلّ فضيلة، وسُلّم لكلّ ترقٍّ.

ويمكن لنا أن نفرض قومًا هجر الحياء نفوسهم، فماذا نرى فيهم، سوى المجاهرة بالفحشاء، والمنافسة في المنكر، وشَوَسِ الطباع[٤] وسوء الأخلاق، والإخلاد إلى دنيّات الأُمور وسفاسف الشؤون، وكفى بمشهدهم شناعة أن نرى تغلّب الشهوات البهيميّة عليهم، وتملّك الصفات الحيوانيّة لإرادتهم وتسلّطها على أفعالهم.

والخصلة الثانية: الأمانة: ومن المعلوم الجليّ أنّ بقاء النوع الإنساني قائم بالمعاملات والمعاوضات في منافع الأعمال، وروح المعاملة والمعاوضة إنّما هي الأمانة، فإن فسدت الأمانة بين المتعاملين بطلت صلات المعاملة، وانبترت حبال المعاوضة، فاختلّ نظام المعيشة، وأفضى ذلك بنوع الإنسان إلى الفناء العاجل.

ثمّ من البيّن أنّ الأُمم في رفاهتها، والشعوب في راحتها وانتظام أمر معيشتها،

---

(١) الذل والخضوع.

(٢) القَرَن: الحبل يُقرن به البعيران؛ أي إنّهما مقترنان به وملازمان له.

(٣) الجَبَانُ الضَّعِيف.

(٤) شاسَ شَوَسًا: نظر بمؤخّر عينيه تكبّرًا أو تغيّظًا، أو كان شديدًا جريئًا في القتال، وخطوب شُوْس: شديدة.

محتاجة إلى «الحكومة» بأيّ أنواعها؛ إمّا جمهوريّة، أو ملكيّة مشروطة، أو ملكيّة مقيّدة.

والحكومة في أيّ صورها لا تقوم إلّا برجال يلُونَ ضروبًا من الأعمال، فمنهم حرّاس على حدود المملكة، يحمونها من عدوان الأجانب عليها، ويدافعون الوالج[١] في ثغورها، وحَفَظة في داخل البلاد، يأخذون على أيدي السفهاء، ممّن يهتك ستر الحياء، ويميل إلى الاعتقاد[٢] من فتك أو سلب أو نحوهما.

ومنهم حَمَلة الشرع وعُرَفاء القانون، يجلسون على منصّات الأحكام لفصل الخصومات والحكم في المنازعات.

ومنهم أهل جباية الأموال، يحصلون من الرعايا ما فرضت عليهم الحكومة من خراج، مع مراعاة قانونها في ذلك، ثمّ يستحفظون ما يحصلون في خزائن المملكة، وهي خزائن الرعايا في الحقيقة، وإن كانت مفاتيحها بأيدي خزنتها.

ومنهم من يتولّى صرف هذه الأموال في المنافع العامّة للرعيّة مع مراعاة الاقتصاد والحكمة، كإنشاء المدارس والمكاتب، وتمهيد الطرق وبناء القناطر، وإقامة الجسور، وإعداد المستشفيات، ويؤدّي أرزاق سائر العاملين في شؤون الحكومة؛ من الحرّاس والحفظة وقضاة العدل وغيرهم حسبما عُيّن لهم.

وهذه الطبقات من رجال الحكومة الوالين على أعمالها، إنّما تؤدّي كلّ طبقة منها عملها المنوط بها بحكم «الأمانة».

فإن خزيت أمانة أولئك الرجال وهم أركان الدولة سقط بناء السلطة، وسلب الأمن، وزاحت الراحة من بين الرعايا كافّة، وضاعت حقوق المحكومين، وفشا فيهم القتل والتناهب، ووعرت طرق التجارة، وتفتّحت عليهم أبواب الفقر والفاقة، وخوت خزائن الحكومة، وعميت على الدولة سُبُل النجاح، فإن حَزَبَها[٣] أمر سُدّت عليها نوافذ النجاة.

---

(١) الداخل.

(٢) هكذا في الأصل والأرجح الاعتداء.

(٣) اشتدّ عليها.



ولاريب أنّ قومًا يساسون بحكومة خائنة، إمّا أن ينقرضوا بالفساد، وإمّا أن يأخذهم جبروت أُمة أجنبيّة عنهم، يسومونهم خَسْفًا[١]، ويستبدّون فيهم عَسْفًا[٢]، فيذوقون من مرارة العبوديّة ما هو أشدّ من مرارة الانقراض والزوال.

ومن الظاهر أن استعلاء قوم على آخرين، إنما يكون باتحاد آحاد العالين، والتئام بعضهم ببعض، حتى يكون كل منهم لبنية قومة كالعضو للبدن، ولن يكون هذا الاتحاد، حتى تكون الأمانة قد ملكت قيادهم، وعمت بالحكم أفرادهم.

فقد كشف الحقّ أن الأمانة دعامة بقاء الانسان، ومستقرّ أساس الحكومات، وباسط ظلال الأمن والراحة، ورافع أبنية العز والسلطان وروح العدالة وجسدها، ولا يكون شيء من ذلك بدونها.

وإليك الاختبار في فرض أُمة عطلت نفوسهم من حلية هذه الخلة الجليلة، فلا تجد فيها إلّا آفات جائحة، ورزايا قاتلة، وبلايا مهلكة وفقرًا معوزًا، وذلًّا معجزًا، ثم لا تلبث بعد هذا كله، أن تبتلعها بلاليع العدم، وتلتهمها أُمّهات اللّهَيم[٣].

الخصلة الثالثة: الصدق: الإنسان كثير الحاجات، غير معدود الضرورات، وكلّ ما يسدّ حاجاته ويدفع ضروراته، وراء ستار الخفاء محجوب، وتحت حجاب الغيب مكنون.

قذف بالإنسان من غيب يجهله، إلى ظهور لا يعرفه، فقام في بدء نشأته في زاوية عمياء لا يذكر اسمًا، ولا يعهد رسمًا.

هذا الإنسان على ضعفه، كأنّما أَحفظ الأكوانَ قبل وجوده، فأرصدت له القتال، وهيّأت له النضال، فله في كلّ مثناة[٤] منها كامنة بليّة، وفي كلّ حِنْو[٥]

---

(١) الخسْف: الذُّل والنقيصة.

(٢) العَسْف: الظُّلم والجَوْر.

(٣) أُمّ اللُّهَيْم: كنية الموت؛ لأنه يلتهم كلّ أحد، أو الداهية، ويقال «نزلت بهم أم اللهم» أي التهمتهم المنية. وهذا التعبير غريب في أسلوب الشيخ محمد عبده، فأنّ «بلاليع العدم» تشذّ عن ذوقه.

(٤) الطيّ والالتواء.

(٥) أي في كلّ جانب.



رابضة رزيّة[١]، وكلٌّ أفاق سهمه في قِسِيّ الأدوار الزمنيّة ليصيب مقاتل الإنسان.

مُنح الإنسان خمسة مشاعر: السمع، والبصر، والذوق، واللمس، والشمّ، ولكن لا غناء بها في هدايته لأقرب حاجاته، وإرشاده لدفع ما خفّ من ضروراته، فأحجى أن لا كفاء لها في استطلاع مكامن البلايا واكتشاف مخابىء الرزايا، ليأخذ حذره، ويحرز أمره، فهو في حاجة كلّ الحاجة للاستعانة بمشاعر أمثاله، من بني جنسه، والاستهداء بمعارفهم؛ ليتفادى بهدايتهم من بعض لسعات المصائب، ويصيب من الرزق ما فيه قوام معيشته، وسداد عَوَزه، والاستهداء إنّما يكون بالاستخبار، ولا تتمّ فائدة الخبر في الهداية، إلّا أن يكون من مصدر صدق، يحدّث عن موجود، ويحكي عن مشهود، وإلّا فما الهداية في خبر لا واقع له؟!

نعم: الكاذب يُري البعيد قريبًا، والقريب بعيدًا، ويُظهر النافع في صورة الضارّ، والضارّ في صورة النافع، فهو رسول الجهالة، وبعيث الغواية، وظهير الشقاء، ونصير البلاء. فعلى ما تقدّم تكون صفة الصدق ركنًا ركينًا للوجود الإنساني، وعمادًا للبقاء الشخصي والنوعي، وموصل العلائق الاجتماعيّة بين آحاد الشعوب، ولا تتحقّق أُلفة مدنيّة أو منزليّة بدونه.

وانظر فيما إذا فقدت أُمة خَلّة الصدق، كيف يُنيخ الشقاءُ بها رواحلَه، ويُنفذ سوءُ البخت فيها عواملَه، وكيف ينتثر نظامها، ويفسد التئامها.

---

(١) المصيبة العظيمة.



[الفصل الثالث]

تفصيل غايات النيشريين

[أباطيل الدهريين جَحَدَة الأديان]: هؤلاء جَحَدَة الأُلوهيّة في أيّ أُمّة، وبأيّ لون ظهروا، كانوا يسعون - ولا يزالون يسعون - لقلع أساس هذا القصر المسدّس الشكل؛ قصر السعادة الإنسانية، القائم بستّة جدران: ثلاث عقائد، وثلاث خصال[١]، أعاصير أفكارهم تدكدك هذا البناء الرفيع، وتُلقي بهذا النوع الضعيف إلى عراء الشقاء، وتهبط به من عرش المدنيّة الإنسانية إلى أرض الوحشيّة الحيوانيّة.

[لقد] وضعوا مذاهبهم على بطلان الأديان كافّة، وعدّوها أوهامًا باطلة، ومجعولات وضعيّة، وبنوا على هذا: أن لا حقّ لملّة من الملل أن تدّعي لنفسها شرفًا على سائر الملل؛ اعتمادًا على أُصول دينها، بل الأليق بها على رأيهم أن تعتقد أنها ليست أولى من غيرها بفضيلة، ولا أجدر بمزيّة. ولا يخفى ما يتبع هذا الرأي الفاسد؛ من فتور الهمم، وركود الحركات الإرادية عن قصد المعالي، كما تقدّم بيانه.

قالوا: إنّ الإنسان في المنزلة كسائر الحيوانات، وليس له من المزايا ما يرتفع به على البهائم، بل هو أخسّ منها خِلْقة، وأدنى فطرة، فسهّلوا بذلك على الناس إتيان القبائح، وهوّنوا عليهم اقتراف المنكرات، ومهّدوا لهم طرق البهيميّة، ورفعوا عنهم معايب العدوان.

ذهبوا إلى أنه لا حياة للإنسان بعد هذه الحياة، وأنّه لا يختلف عن النباتات

---

(١) هي العقائد والخصال التي تكلّم عنها قبلُ، وأطلق عليها - هنا - اسم القصر المسدّس الشكل، ونعته بقصر السعادة.

الأرضيّة؛ تنبت في الربيع مثلًا، وتيبس في الصيف، ثمّ تعود ترابًا، والسعيد من يستوفي في هذه الحياة حظوظه من الشهوات البهيميّة.

وبهذا الرأي الفاسد، أطلقوا النفوس من قيد التأثّم، ودفعوها إلى أنواع العدوان؛ من قتل وسلب وهتك عرض، ويسّروا لها الغدر والخيانة، وحملوها على فعل كلّ خبيثة، والوقوع في كلّ رذيلة، وأعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشري، وأعدموها الرغبة في كشف الحقائق، ومعرفة أسرار الطبيعة.

هذا الوباء المهلك، والطاعون المجتاح، أعني «النيشريّين» لا يُصيب أهل الحياء؛ لامتناع نفوسهم عن مشاكلة البهائم، وإبائها عن وضع أقدامها في منازل الحيوانيّة المحضة، وأنفتها من الاشتراك في الأموال والأبضاع، وإباحة التناول ممّا يختصّ بالغير منها.

ولهذا، عمد هؤلاء المفسدون إلى خَلّة الحياء ليُزيلوها أو يُضعفوها، فقالوا: إنّ الحياء من ضعف النفس ونقصها، فإذا قويت النفوس، وتمّ لها كمالها، لم يغلبها الحياء في عملٍ ما كائنًا ما كان.

فمن الواجب الطبيعي «في زعمهم» أن يسعى الإنسان في معالجة هذا الضعف «الحياء» ليفوز بكمال القوة «قلّة الحياء» وبهذه الدسيسة يخلطون بين الإنسان والهَمَل[١]، ويمزجونه بالهامجات[٢] من النَّعَم، ويوحّدون بين حاله وتصرّفه، وبين حال الدوابّ والأنعام، من إباحة كلّ عمل، والاشتراك في كلّ شهوة، ويهوّنون عليه إتيان ما تأتيه في نزواتها.

ولا يخفى أنّ الأمانة والصدق منشأهما في النفس الإنسانيّة أمران: الإيمان بيوم الجزاء، وملكة الحياء، وقد ظهر: أنّ من أُصول مذاهب هذه الطائفة إبطال تلك العقيدة، ومحو هذه الملكة الكريمة، فيكون تأثير آرائهم في إذاعة الخيانة وترويج الكذب، أشدّ من تأثير دعوة داعٍ إلى نفس الخيانة والكذب.

فإنّ منشأ الفضيلتين ما دام في النفس أثر منه، يبعثها على مقاومة الداعي

---

(١) الهَمَل من الإبل: المتروك ليلاً ونهارًا يرعى بلا راعٍ.

(٢) المتروكة يموج بعضها في بعض كالغنم بلا راعٍ.



إلى الرذيلتين، فيضعف أثر دعوته، والمؤمّن بالجزاء، المبرقع بالحياء، إن سقط في الخيانة أو الكذب مرة، وجد من نفسه زاجرًا عنهما مرّة أُخرى، أمّا لو مُحي الإيمان والحياء، وهما منشأ الصدق والأمانة، من لوح النفس، فلا يبقى منها وازع عن ارتكاب ضدّيهما.

ويزيد في شناعة ما ذهبوا إليه، أنّ في أُصولهم الإباحة والاشتراك المطلقين[1]، فيزعمون أنّ جميع المشتهيات حقّ شائع، والاختصاص بشيء منها يعدّ اغتصابًا، كما سيذكر، فلم يبقَ للخيانة محلّ، فإنّ الاحتيال لنيل الحقّ لا يعدّ خيانة، ومثلها الكذب، فإنه يكون وسيلة للوصول إلى حقّ مغتصب «في زعمهم» فلا يعدّ ارتكابًا للقبيح.

لا جَرَمَ[2] أن آراء هذه الطائفة مروِّجة للخيانات، باعثة على افتراء الأكاذيب، حاملة للأنفس على ارتكاب الشرور والرذائل، وإتيان الدنايا والخبائث.

وإنّ أُمّة تفشو فيها هذه الحوالق[3] لجديرة بالفناء، جالية عن باحة البقاء[4]، فقد انكشف الخفاء، بما بيّنّا، عن فساد مشارب هذه الطائفة، وعن وجه سَوقها الأُمم والشعوب إلى مهاوي الهَلَكة والدمار.

وأقول: إنّها من أشدّ الأعداء للنوع الإنساني كافّة، فإنّ ما هاج في رؤوس أبنائها من «الماليخوليا»[5] يخيّل إليهم أنّ الإصلاح فيما يزعمون، ويصوّر لهم حقيقة النجاح في صور ما يتوهّمون، فيبعثهم هذا الفساد لإيقاد النار في بيت هذا النوع الضعيف؛ ليمحو بذلك رسمه من لوح الوجود، فإنّ من الظاهر عند كلّ ذي إدراك أنّ أفراد هذا النوع يحتاجون في بقائهم إلى عدّة صنائع لو لم تكن أهلكتهم حوادث الجوّ، وأعوزهم القوت الضروري، والصنائع المحتاج إليها تختلف أصنافها، وتتفاوت درجاتها، فمنها الخسيس، والشريف، ومنها السهل، ومنها الصعب.

---

(١) أي المطلقين من كلّ قيد أخلاقي أو أدبي أو اجتماعي أو قانوني.

(٢) لا محالة ولا بدّ وحقًا.

(٣) جمع حالقة: السنة الشديدة التي تحلق كلّ شيء، المنيّة، القول السيئ، والمعنى الأخير أنسب.

(٤) أي خارجة عن ساحة الوجود.

(٥) حالَةُ الكآبَة.



وهذه الطائفة «النيشريّة» تسعى لتقرير الاشتراك في المشتهيات، ومحو حدود الامتياز، ودرْس[١] رسوم الاختصاص؛ حتى لا يعلو أحد عن أحد، ولا يرتفع شخص عن غيره في شيء ما، ويعيش الناس كافّة على حدّ التساوي؛ لا يتفاوتون في حظوظهم، فإن ظفرت هذه الطائفة بنجاح في سعيها هذا، ولاق[٢] هذا الفكر الخبيث بعقول البشر، مالت النفوس إلى الأخذ بالأسهل، فلا تجد من يتجشّم مشاقّ الأعمال الصعبة، ولا من يتعاطى الحِرَف الخسيسة؛ طلبًا للمساواة في الرفعة، فإن حصل ذلك، اختلّ نظام المعيشة، وتعطّلت المعاملات، وبطلت المبادلات، وأفضى إلى تدهور هذا النوع في هُوّة الهلاك.

نعم، إنّ أفكار المصابين «بالماليخوليا» لا تُنتج أحسن من هذه النتيجة. ولو فرضنا محالًا، وعاش بنو الإنسان على هذه الطريقة العوجاء، فلا ريب أن تُمحى جميع المحاسن، وضروب الزينة، وفنون الجمال العملي، ولا يكون لبهاء الفكر الإنساني أثر، ويفقد الإنسان كلّ كمال ظاهر أو باطن، صوريّ أو معنويّ، ويعطّل من حَلْي الصنائع، وتغرب عنه أنوار العلم والمعرفة، ويصبح في ظلام جَهْلٍ، وبلاء أزْل[٣]، وينقلب كرسيّ مجده، وينثلّ[٤] عرش شرفه، ويُصْحِر[٥] في بادية الوحشية كسائر أنواع الحيوان، ليقضي فيها أجلًا قصيرًا مُفعمًا بضروب الشقاء، محاطًا بأنواع من المخاوف، محشوًّا بأخلاط من الأوجال[٦] والأهوال، فإنّ المبدأ الحقيقي لمزايا الإنسان إنّما هو حبّ الاختصاص، والرغبة في الامتياز، فهما الحاملان على المنافسة، السائقان إلى المباراة والمسابقة، فلو سُلِبَتْهما أفرادُ الإنسان وقفت النفوس عن الحركة إلى معالي الأُمور، وأغمضت العقول عن كشف أسرار الكائنات، واكتناه حقائق الموجودات، وكان الإنسان في معيشته على مثال البهائم البَرّيّة إن أمكن له ذلك، وهيهات هيهات.

---

(١) أي محو الاختصاص والفروق بين الأفراد.

(٢) لاق بعقول البشر: أي ناسبهم وأعجبهم وأحبّوه ولصق بعقولهم وثبت.

(٣) الأزْل - بفتح الهمزة وسكون الزاي - الضيق والشدّة والحبس، وبكسر الهمزة: الداهية.

(٤) يسقط وينهدم.

(٥) أي يخرج هائمًا كالحيوان الوحشيّ في الصحراء.

(٦) الخَوْفُ، الفَزَعُ



مسالكهم في طلب غاياتهم

سلكوا مخالج من الطرق لبثّ أوهامهم الفاسدة، فكانوا إذا سكنوا إلى جانب أمنٍ، جهروا بمقاصدهم بصريح المقال، وإذا أزعجتهم سطوة العدل أخذوا طريق الرمز والإشـارة، وكنَّوا عمّا يقصدون، ولوّحوا إلى ما يطلبون، ومشوا بين الناس مشية التدليس.

وتارة كانوا يحملون على أركان القصر المسدّس ليصدعوها بجملتها في آن واحد، وأُخرى كانوا يعمدون إلى بعضها إذا رأوا قوّة المانع دون سائرها، فيجعلون ما قصدوا منها مرمى أنظارهم، ويكدحون لهدمه بما استطاعوا من حول وقوّة، وقد تلجئهم الضرورة إلى البعد عن الأركان الستّة بأسرها، فلا يأتون بما يمسّها مباشرة، ولكنهم يدأبون لإبطال لوازمها، أو ملزوماتها؛ ليعود ذلك بإبطالها.

وقد يكتفون بإنكار الصانع جلّ شأنه، وجحد عقائد الثواب والعقاب، ويجهدون لإفساد عقائد المؤمنين، علمًا منهم بأن فساد هاتين العقيدتين «الاعتقاد باللَّه، والاعتقاد بالثواب والعقاب» لا محالة يُفضي إلى مقاصدهم ويؤدّي إلى نتيجة أفكارهم.

وكثيرًا ما سكتوا عن ذكر المبادىء، وسقطوا على ذات المقصد، وهو «الإباحة والاشتراك»، وأخذوا في تحسينه وتزيينه، واستمالة النفوس إليه، وقد يزيدون على الدعوة الإقناعيّة بأي وجوهها عملًا جاهليًّا تأنف منه الطباع، وتأباه شرائع الإنسانية وذلك أن يأخذوا معارضيهم بالغدر والاغتيال، فكثيرًا ما فتكوا بآلاف من الأرواح البريئة، وأراقوا سيولًا من الدماء الشريفة، بطرق من الحيل، وضروب من الختل[١].

ضرر مذاهب النيشريين حتى بعقول من لا يأخذ بها - إذا خالطهم -

متى ظهر النيشريون في أُمّة، نفذت وساوسهم في صدور الأشرار من تلك الأُمّة، واستهوت عقول الخبثاء الذين لا يهمّهم إلّا تحصيل شهواتهم ونيل لذّاتهم من أيّ وجه كان؛ لموافقة هذه الآراء الفاسدة لأهوائهم الخبيثة، فيميلون معهم إلى ترويج المشرب النيشري، وإذاعته بين العامة غير ناظرين إلى مايكون من أثره.

---

(١) الخداع.



ومن الناس من لا يساهمهم في آرائهم، ولا يضرب في طرقهم، إلّا أنه لا يسلم من مضارّها ومفاسدها، فإنّ الوهن يُلمّ بأركان عقائده، والفساد يسري لأخلاقه من حيث لا يشعر؛ حيث إنّ أغلب الناس مقلّدون في عقائدهم، منقادون للعادة في أخلاقهم، وأقلّ التشكيك، وأدنى الشبهة، يكفي علّة لزعزعة قواعد التقليد وضعضعة قوائم العادة.

وإنّ هـؤلاء النيشريين، بما يقذفون بين الناس من أباطيلهم، يبذرون في النفوس بذور المفاسد، فلا تلبث أن تنمو في تراب الغفلة، فتكون ضريعًا وزقّومًا[1].

ولهذا، قد يعمّ الفساد أفراد الأُمة التي تظهر فيها هذه الطائفة، وكلٌّ لا يدري من أيّ باب دمر الفساد قلبه، فتشيع بينهم الخيانة، والغدر، والكذب والنفاق، ويهتكون حجاب الحياء، وتصدر عنهم شنائع تنكرها الفطرة البشريّة، يأتون ما يأتون من تلك القبائح مجاهرة بلا تحرّج، وكلٌّ منهم، وإن كان يدّعي بلسانه أنّه مؤمن بيوم الجزاء، وفي نفسه أنّ ذلك اعتقاده واعتقاد آبائه، إلّا أنّ عمله عمل من يعتقد أن لا حياة بعد هذه الحياة؛ لسريان عقائد النيشريين إلى قلبه، وهو في غفلة عن نفسه، فلهذا تغلب عليهم الأثَرَة، وهي إفراط الشخص في حبّه لنفسه، إلى حدّ أنه لو عرض في طريق منفعته مضرّة كلّ العالم، لطلب تلك المنفعة وإن حاق الضرر بمن سواه، ومن لوازم هذه الصفة أنّ صاحبها يؤثر منفعته الخاصّة على المنافع العامّة، ويبيع جنسه وأُمّته بأبخس الأثمان، بل لا يزال به الحرص على هذه الحياة الدنيئة يبعث فيه الخوف، ويمكّن منه الجبن، حتى يسقط به في هاوية الذلّ، ويكتفي من الحياة بمدّها وإن كانت مكتنفة بالذلّ، محاطة بالمسكنة، مبطّنة بالعبودية، فإذا وصلت الحال في أُمة إلى أن تكون آحادها على هذه الصفات، تقطّعت فيها روابط الالتئام، وانعدمت وحدتها الجنسية[2]، وفقدت قوّتها الحافظة، وهوت عروش مجدها، وهجرت الوجود كما هجرها.

---

(١) الضريع: يبيس الشِّبْرِق، وهو نبات حجازيّ يؤكل وله شوك وله زهرة حمراء، فإذا يبس سُمّي ضريعًا، والزَّقُّوم: كلّ طعام يقتل، وهو طعام كريه لأهل النار.

(٢) زالت وحدتها الجنسية.



[الفصل الرابع]

بما أفسد النيشريون (الدهريون)

[الإغريق]

شعب «الكريك» أي اليونانيون، كانوا قومًا قليلي العدد، وبما أُلهموا أو ورثوا من العقائد الثلاث، خصوصًا عقيدة أنّ أُمّتهم أشرف الأُمم، وبما أُودعوا من الصفات الثلاث، خصوصًا صفة الأنفة والإباء وهي عين الحياء، ثبتوا أحقابًا[١] في مقاومة الأُمة الفارسيّة، وهي تلك الأُمة العظيمة، التي كانت تمتدّ من نواحي «كشغر»[٢] إلى ضواحي «أستانبول»، ذلك فوق ما بلغوه من الدرجات العالية في العلوم الرفيعة. وقد حملهم الخوف من الذُّلّ، والأنَفة من العبوديّة على الثبات في مواقف الأبطال، بل رسخ بهم ذلك ولا رسوخ الجبال؛ حذرًا من الوقوع فيما لا يليق بأرباب الشرف، وأبناء المجد، حتّى آل بهم الأمر أن تغلّبوا على تلك الدولة العظيمة «دولة فارس»، وهدموا أركانها، ومدّوا أيديهم إلى الهند.

وكانت صفة الأمانة قد بلغت من نفوسهم إلى حيث كانوا يرجّحون الموت على الخيانة، كما تراه في قصّة «تيمستوكليس»[٣]، وهو قائد يوناني نبذه أبناء جِلْدته وطردوه، وأرصدوا له القتل، فاضطرّ إلى الفرار من أيديهم، والتجأ إلى

---

(١) الأحقاب والأحقب جمع حُقُب: ثمانون سنة أو أكثر أو الدهر.

(٢) مدينة كشغر في منطقة (شينجيانج، أو تركستان الشرقية)، تقع في غرب الصين. وكانت في الماضي مركزًا إسلاميًا مهمًا للتجارة والثقافة على طريق الحرير الذي يصل الشرق بالغرب.

(٣) هو من قوّاد اليونان، ولد سنة ٥٣٣ (ق. م) ، وتُوفّي سنة ٤٦٥ (ق. م) ، هزم أُسطول الفرس في واقعة سلامين سنة ٤٨٠ (ق. م) ، ثمّ غضب عليه أبناء جِلْدته، ولكنّه لم يَخُنهم، وآثر الموت.



«ارتكزيكسيس»[1] ملك فارس، فلمّا كانت الحرب بين فارس واليونان، أمره «ارتكزيكسيس» أن يتولّى قيادة جيش لحرب اليونان، فأبى أن يحارب أُمته، وإن كانت طردته، فلما ألحّ عليه الملك الفارسيّ ولم يجد محيصًا، تناول السمّ، ومات أَنَفَة من خيانة بلاده.

[ظهور أبيقور في اليونان]

ظهر أبيقور[2] الدهري وأتباعه الدهريّون في بلاد اليونان، متّسيمين بسيماء الحكماء، وأنكروا الأُلوهية – وإنكارُها أشدُّ المنكر، ومنبع كلّ وبال وشرّ، كما يأتي بيانه – .

ثمّ قالوا: ما بال الإنسان معجب بنفسه، مغرور بشأنه، يظنّ أنّ الكون العظيم إنّما خُلِقَ خدمة لوجوده الناقص، ويزعم أنه أشرف المخلوقات، وأنّه العلّة الغائيّة لجميع المكونات؟! ما بال هذا الإنسان قاده الحرص، بل الجنون والخرق، إلى اعتقاد أنّ له عوالم نورانيّة، ومعاهد قدسيّة، وحياة أبديّة، يُنْقَلُ إليها بعد الرحلة من هذه الدنيا، ويتمتّع فيها بسعادة لا يشوبها شقاء، ولذّة لا يخالطها كدر[3]، ولهذا قيّد نفسه بسلاسل كثيرة من التكاليف، مخالفًا نظام الطبيعة العادل، وسدّ في وجه رغبته أبواب اللذائذ الطبيعيّة، وحرم حسّه كثيرًا من الحظوظ الفطريّة، مع أنّه لا يمتاز عن سائر الحيوانات بمزيّة من المزايا في شأن من الشؤون، بل هو أدنى وأسفل من جميعها في جِبِلّته، وأنقص من كلّها في فِطْرته، وما يفتخر به من الصنائع فإنّما أخذه بالتقليد عن سائر الحيوانات، فالنسج مثلًا نقله عن العنكبوت، والبناء استنّ فيه بسُنّة النحل، ورفع القصور وإنشاء الصوامع، أخذ فيه مأخذ النمل الأبيض، وادّخار الأقوات، حذا فيه حذو جنس النمل، وتعلّم الموسيقى من البلبل... وعلى ذلك بقيّة الصنائع.

---

(١) ارتكزيكسيس: اسم لثلاثة ملوك من ملوك فارس: الأوّل الملقّب بالطويل اليد (٤٦٥ – ٤٢٥ ق. م) ، والثاني الملقّب بحسن الذاكرة (٤٠٥ – ٣٥٨ ق. م) ، والثالث الملقّب بأوكوس (٣٥٠–٣٣٨ق.م) الذي اجتاح مصر (٣٤٥ ق. م) .

(٢) أبيقور (٣٤٢ ق. م. – ٢٧٠ ق. م.). فيلسوف إغريقي كان لأفكاره حول اللذة، والحرية، والصداقة، تأثير كبير على العالم الروماني اليوناني.

(٣) عِيشُ فِي كَدَرٍ: فِي غَمٍّ ، فِي كَآبَةٍ وَحُزْنٍ.



فإن كان هذا شأنه من النقص، فليس من اللائق به أن يقذف بنفسه في ورطات المتاعب والمشاقّ عبثًا، ومن الجهل أن يغترّ بهذه الحياة التي لا تمتاز عن حياة سائر الحيوانات، بل ولا جميع النباتات، وليس وراءها حياة أُخرى في عالم آخر، بل أجدر به أن يُلقي ثقل التكاليف عن عاتقه، ويقضي حقّ الطبيعة البدنيّة من حظّ اللذّة، ومتى سنح له عارض رغبة حيوانيّة، وجب عليه تناوله من أيّ وجوهه، وعليه أن لا ينقاد إلى ما تُخيِّله له أوهام الحلال والحرام، واللائق وغير اللائق...- لبئس ما سوّلت لهم أنفسهم - نعوذ باللّه - فتلك أُمور وضعيّة - في زعمهم - تقيّد بها الناس جهلًا، فلا ينبغي لابن الطبيعة أن يجعل لها من نفسه محلًّا.

ولما امتنعت عليهم نفوس أهل الحياء من الأُمّة، فلم تأخذ منها وساوسهم، وجدوا تلك الصفة الكريمة سدًّا دون طلبتهم، فانصبّوا عليها يقصدون محوها من الأنفس، وأعلنوا أنّ الحياء ضعف في النفس - على ما تقدّم - وزعموا أنّ من الواجب على طالب الكمال أن يكسر مقاطر[١] العادات، ويحمل نفسه على ارتكاب ما يستنكره الناس حتى يعود من يسهل عليه أن يأتي كلّ قبيح بدون انفعال نفسيّ، ولا يجد أدنى خجل في المجاهرة بأيّة هجينة كانت.

ثمّ تقدّم الأبيقوريّون إلى العمل بما يرشدون إليه فهتكوا حجاب الحياء، ومزّقوا ستاره، وأراقوا ماء الوجه الإنساني المكرّم، فاستحلّوا التناول من مال الناس بغير إذن، وكانوا متى رأوا مائدة اقتحموا عليها، سواء طُلبوا أو لم يُطلبوا، حتّى سمّاهم القوم بالكلاب، فإذا رأوهم رموهم بالعظام المعروفة، ومع ذلك لم تتنازل هذه الكلاب الإنسيّة عن دعوى الحكمة، ولم يردعها رادع الزجر عن شيء من شرورها، وكانت تنبح في الأسواق منادية: المال مشاع بين الكلّ، وتهجم على الناس من كلّ ناحية، وهذا سبب شهرتهم بالكلبيّين.

فلمّا ضربت أفكار «الدهريّين» في نفوس اليونان، بسعي الأبيقوريّين، ونشبت بعقولهم، سقطت مداركهم إلى حضيض البلادة، وكسد سوق العلم والحكمة، وتبدّل شرف أنفسهم بالذُّلّ واللُّؤم، وتحوّلت أمانتهم إلى الخيانة، وانقلب الوقار والحياء قِحّة وتسفّلًا، واستحالت شجاعتهم إلى الجبن، ومحبّة جنسهم ووطنهم إلى المحبّة الشخصيّة.

---

(١) جمع مقطرة: وهي خشبة فيها خروق بقدر أرجل المحبوسين (هذا التفسير لمحمد عبده).



وبالجملة: فقد تهدّمت عليهم الأركان الستّة التي كان يقوم عليها بيت سعادتهم، وانتقض أساس إنسانيّتهم، ثمّ انتهى أمرهم بوقوعهم أسرى في أيدي الرومانيين «جنس اللاتين»، وكُبِّلوا في قيود العبوديّة زمنًا طويلًا، بعد ما كانوا يُعَدّون حكامًا في الأرض بلا معارض.

[الأُمّة الفارسيّة]

«الأُمّة الفارسيّة» بلغت فيها الأُصول الستّة، أعلى مكانة من الكمال أحقابًا طويلة، فكانت لها أُصول السعادة، وموارد النعيم، حتى بلغ اعتقاد الفارسيّين من الشرف لأنفسهم، إلى حدّ أنهم كانوا يزعمون أنّ السعداء من غيرهم إنّما هم الداخلون في عهدهم، المستظلّون بحمايتهم، أو المجاورون لممالكهم.

كان الصدق والأمانة أول التعليم الديني عندهم، ووصلوا في التحرّج من الكذب إلى حيث كانوا إذا بلغت الحاجة مبلغها من أحدهم، لا يتقدّم للاقتراض؛ خوف أن يضطرّه الدَّين إلى الكذب في مواعيد وفائه، فارتفعوا بهذه الخصال إلى درجة من العزّة، وبسطة الملك، يلزم لبيانها كتاب مثل الشاهنامه[١].

قال المؤرخ الفرنسي «فرنسيس لونورمان»: «إن مملكة فارس على عهد «دارا الأكبر»[٢] كانت إحدى وعشرين إيالة: واحدة منها تحتوي مصر وسواحل القلزم «البحر الأحمر»، وبلوخستان، والسند، وكانوا إذا ألمَّ الضعف بسلطانهم في زمن من الأزمان، بعثتهم تلك العقائد القويمة والصفات الكريمة على تلافي أمرهم، فخلصوا ممّا ألّم بهم في قليل زمن، ورجعوا إلى مكانتهم الأُولى ومجدهم الأعلى.

---

(١) الشاهنامه: هي الملحمة العظمى التي تشتمل على ستّين ألف بيت من الشعر الفارسي، ألّفها أبو القاسم منصور الفردوسي، شاعر الفرس الأكبر، يُنسب إلى الفردوس، أي جنة الفردوس.. وتحكي ملحمته الكبيرة الشاهنامه (أي كتاب الملوك) تاريخ بلاد فارس من عصرها السحيق قبل نحو ٣٦٠٠ ق. م وحتى تاريخ الفتح الإسلامي في عام ٢١هـ، ٦٤١م.

(٢) يقول الطبري: «ملك دارا بن بهمن بن إسفنديار بن بشتاسب، وكان ينبه بجهرازاد، يعني به: كريم الطبع، فذكروا أنه نزل بابل، وكان ضابطًا لملكه، قاهرًا لمن حوله من الملوك، يؤدون إليه الخراج، وأنه ابتنى بفارس مدينة سماها: دارابجرد، وحذف دواب البرد ورتبها، وكان معجبًا بابنه دارا، وأنه من حبه إياه سماه باسم نفسه، وصير له الملك من بعده».



[مزدك الدهري][١]

ظهر فيهم «مزدك» النيشري «الدهري» على عهد «قباد»[٢] وانتحل لنفسه لقب «رافع الجور ودافع الظلم»، وبنزعة من نزعاته، قلع أُصول السعادة من أرض الفارسيّين، ونسفها في الهواء وبدّدها في الأجواء، فإنه بدأ تعاليمه بقوله: «جميع القوانين والحدود والآداب، التي وضعت بين الناس، قاضية بالجور، مقرّرة للظلم، وكلّها مبنيّ على الباطل، وإنّ الشريعة النيشريّة المقدّسة لم تنسخ حتّى الآن، وقد بقيت مصونة في حرزها عند الحيوانات والبهائم.

أيّ عقل وأيّ فهم يصل إلى سرّ ما شرّعته «الطبيعة»؟! وأيّ إدراك يحيط بمثل ما أحاط به، وقد جعلت الطبيعة حقّ المأكل والمشرب والبضاع، مشاعًا بين الآكلين والشاربين والمباضعين بدون أدنى تخصيص، فما الحامل للإنسان على حرمان نفسه من بضاع بنته وأُمه وأُخته، ثمّ تركهن لغيره يتمتّع بهنّ انقيادًا لما يخيّله له الوهم، ممّا يسميه شريعة وأدبًا؟!

وأيّ حقّ يستند إليه من يدّعي ملكية خاصّة في مال يتصرّف فيه دون سواه، مع أنه شائع بينه وبين غيره؟!

وأيّ وجه لمن يحجر على امرأة دخلت في عقده، ويحظر على الناس نيلها، وقد خُلق الذكر للأُنثى والأُنثى للذكر؟!

---

(١) "مزدك»، ظهر بعد «زرادشت»، وكان ذلك في عهد «خسرو قباد» من ملوك فارس، وزعم أنّ اللّه بعثه ليأمر بشيوع النساء والأموال بين الناس كافّة؛ لأنّهم كلّهم أُخوة وأولاد أب واحد، وانقاد «قباد» إلى مذهب هذا المضلّل، وأباح له أن يخلو بالملكة زوجته، إلاّ أنّ ابن «قباد» وهو «كسرى أنو شروان» حسم الأمر بقتل «مزدك» وأصحابه.

(٢) قباد بن فيروز أو كواذ بن فيروز من أعظم الملوك الساسانيين. ملك ثلاثًا وأربعين سنة (٤٨٨- ٥٣١ م) بدأها بمحاربة الخزر فهزمهم ثم شغل بمجاربة الهياطلة عشر سنين (٥٠٣- ٥١٣ م) حتى خضد شوكتهم فلم يخش لايرانيون شرهم من بعد. وحارب الروم مرتين. الأولى استمرّت سنتين (٥٠٣- ٥٠٥ م). و الثانية سبع سنوات (٥٢٤- ٥٣١ م) ولم يقفها إلا موت قباد. وكانت الحرب بين الفريقين سجالًا. وكان بين الفرس والصين سفارات في عهد قباد حفظ التاريخ الصيني أخبارها. وسيرة قباد في مزدك معروفة وميله إلى هذا المذهب على علاته يشهد بما في نفسه من حب المواساة بين الناس.



وماذا يوجد من العدل في قانون يحكم: بأنّ المال الشائع إذا تناولته يد مغتصب، بما يسمّونه بيعًا وشراء أو إرثًا، يكون مختصًّا بذلك المغتصب، ثمّ يحكم على الفقير المحروم، إذا احتال لأخذ شيء من حقّه والتمتّع به، بأنّه خائن أو غاصب؟!

فإن كان هذا شأن تلك القوانين الجائرة، فعلى الإنسان أن يفكّ أغلالها من عنقه، ويطرح كلّ قيد عقدته القوانين والشرائع والآداب، التي لا واضع لها سوى العقل الإنساني الناقص، وليرجع إلى سُنّة الطبيعة المقدّسة، ويقضي حق شهوته من اللذائذ التي أباحتها له بأيّ الوجوه، ومن أيّة الطرق، ويأخذ في ذلك مأخذ البهائم، وعليه أن يقاوم الغاصبين المتحكّمين في الحقوق قسرًا، أي المالكين للأموال والأبضاع، فيخرجهم عن سوء فعالهم من الغصب والجور؛ أيّ حقّ التملك!

فلمّا ذاعت هذه النزعات الخبيثة بين الأُمّة الفارسيّة، تهتّك الحياء وفشا الغدر والخيانة، وغلبت الدناءة والنذالة، واستولى حكم الصفات البهيميّة على نفوسهم، وفسدت أخلاقهم، ورذلت طباعهم.

نعم، إنّ «أنو شروان»[١] قتل «مزدك» وجماعة من شيعته، ولكنّه لم يستطع محو هذه الأوهام الفاسدة بعد ما علقت بالعقول، والتبست نفايتها بالأفكار، فكان علّة في ضعفهم، حتى إذا هاجمهم العرب لم تكن إلّا حملة واحدة فانهزموا، مع أنّ الروم، وهم أقران الفارسيّين، ثبتوا في مجالدة العرب ومقاتلتهم أزمانًا طويلة.

[الأُمّة الإسلاميّة]

جاءتها الشريعة المحمدية والديانة السماوية، فأشربت قلوبها تلك العقائد الجليلة، ومكّنت في نفوسها تلك الصفات الفاضلة، وشمل ذلك آحادهم، ورسخت بينهم تلك الأُصول الستّة؛ بدرجة يقصر القلم دون التعبير عنها.

---

(١) خُسرو الأول (٥٠١– ٥٧٩ م) وعند العرب كسرى الأول؛ وفي بلاد فارس باسم أنوشيروان العادل أي ذو الروح الخالدة؛ كان أعظم ملوك الساسانيين جميعًا. واسمه كسرى أنو شروان بن قباذ بن يزدجرد بن بهرام جور خلفًا لأبيه قباذ الأول .



فكان من شأنهم، أن بسطوا سلطانهم على رؤوس الأُمم؛ من جبال الألب إلى جدار الصين في قرن واحد، وحثوا تراب المذلّة على رؤوس الأكاسرة والقياصرة، مع أنهم لم يكونوا إلّا شِرْذِمة قليلة العُدّة، نزرة العدد، ولم ينالوا هذه البسطة في الملك والسطوة في السلطان، إلّا بما حازوا من العقائد الصحيحة والصفات الكريمة، هذا إلى ما جذبه مغناطيس فضائلهم من مئة مليون، دخلوا في دينهم في مدّة قرن واحد من أُمم مختلفة، مع أنّهم كانوا يخيّرونهم بين الإسلام، وشيء زهيد من الجزية لا يثقل على النفوس أداؤه.

هكذا كان حال هذه الأُمّة الشريفة من العزّة ومَنَعة السلطان.

[ظهور الباطنيّة في القرن الرابع]

فلمّا كان القرن الرابع بعد الهجرة ظهر «النيشريون» (الطبيعيّون) بمصر تحت اسم الباطنيّة[1] وخَزَنة الأسرار الإلهيّة، وانبثّ دعاتهم في سائر البلاد الاسلاميّة، خصوصًا بلاد إيران.

علم هؤلاء الدهريّون، أنّ نور الشريعة المحمّديّة، على صاحبها أفضل الصلاة، وأتمّ التسليمّ، قد أنار قلوب المسلمين كافّة، وأنّ علماء الدين الحنيفي قائمون على حراسة عقائد المسلمين وأخلاقهم، بكمال علم، وسعة فضل، ودقّة نظر، فلهذا ذهب أولئك المفسدون مذاهب التدليس في نشر آرائهم، وبنوا تعليمهم على أُمور:

أوّلًا: إثارة الشكّ في القلوب، حتّى يتفكّك عقد الإيمان.

وثانيًا: الإقبال على الشاكّ وهو في حيرته، ليمنّوه بالنجاة منها، وهدايته إلى اليقين الثابت، فإذا انقاد لهم أخذوا منه مواثيقهم، ثمّ أوصلوه إلى مرشدهم الكامل.

---

(١) يقصد بذلك فرقة الإسماعيلية، وهذا ما أدى ببعض الباحثين للاستغراب، لماذا قام «جمال الدين الأفغاني» بوضع هذه الفرقة ضمن النيشرية، ولكن هذا الأمر، قد يكون عائدًا إلى القراءة السياقية التي قام بها، والتي تربط بين الفكرة والنتائج المترتبة عليها، فهذا المفكر نظر إلى المآل الذي وصلت إليه هذه الفرقة مع حسن الصباح مؤسس الحشاشين والإسماعيلية النزارية في قلعة الموت عندما أعلن عن إسقاط التكاليف الإلهية، وهذا ما سيوضحه في الفقرات التالية.



ثالثًا: أوعزوا إلى دعاتهم أن يلبسوا لرؤساء الدين الإسلامي لباس الخدعة، وجعلوا من شروط الداعي أن يكون بارعًا في التشكيك، ماهرًا في التلبيس، مقتدرًا على إشراب القلوب مطالبه.

فإذا سقط الساقط من المغرورين في حبالة مرشدهم الكامل، فأوّل ما يُلقّنه المرشد قوله: إنّ الأعمال الشرعيّة الظاهرة، كالصلاة والصيام ونحوهما، إنّما فُرضت على المحجوبين دون الوصول إلى الحقّ، والحقّ هو المرشد الكامل، فحيث إنّك وصلت إلى الحقّ، فإيّاك أن تُلقي عن عاتقك ثقل الأعمال البدنيّة، فإذا مضى عليه زمن في عهدهم، صرّحوا له، بأنّ جميع الأعمال الباطنة والظاهرة، وكذلك سائر الحدود والاعتقادات، إنّما أُلزمت فرائضها بالناقصين، المصابين بأمراض من ضعف النفوس ونقص العقول، أمّا وقد صرت كاملًا، فلك الاختيار في مجاوزة كلّ حدّ مضروب، والخروج من أكنان التكاليف إلى باحات الإباحة الواسعة.

ما الحلال؟! وما الحرام؟! ما الأمانة؟! وما الخيانة؟! ما الصدق؟! وما الكذب؟! ما هي الفضائل؟! وما هي الرذائل؟!

ألفاظ وضعت لمعانٍ مخيلة، وما لها من حقيقة واقعيّة في زعم المرشد. فإذا قرّر المرشد أُصول الإباحة في نفوس أتباعه، التمس لهم سبيلًا لإنكار الأُلوهيّة، وتقرير مذهب النيشريّة «الدهريّين»، فأتى إليهم من باب التنزيه، فقال: اللَّه منزّه عن مشابهة المخلوقات، ولو كان موجودًا لأشبه الموجودات ولو كان معدومًا لأشبه المعدومات، فهو لا موجود ولا معدوم.

يعني أنه يقرّ بالاسم، ويُنكر المسمّى، مع أنّ شبهته هذه سفسطة بديهيّة البطلان، فإنّ اللَّه منزّه عن مشاركة الممكنات في خصائص الإمكان، أمّا في مطلق الوجود فلا مانع من أن يتّفق إطلاق الوصف عليها وعليه، وإن كان وجوده واجبًا، ووجودها ممكنًا.

وقد جدّت طائفة الباطنيّة في إفساد عقائد المسلمين، زمانًا غير قصير أخذًا بالحيلة، ونفاذًا بالخُدْعة، حتّى انكشف أمرهم لعلماء الدين، ورؤساء المسلمين، فانتصبوا لدرء مفاسدهم، وتحويل الناس عن ضلالاتهم، فلمّا رأوا كثرة معارضيهم، شحذوا شفار الغيلة، ففتكوا بكثير من الصالحين، وأراقوا دماء جمّ غفير من علماء الأُمة الإسلامية، وأمراء الملّة الحنيفية.



وبعض أولئك المفسدين عندما أمكنته الفرصة، ووجد من نفسه ريح القوّة، أظهر مقاصده على منبر «الموت»[١] «قلعة في خراسان» وجهر بآرائه الخبيثة، فقال: إذا قامت القيامة حُطّت التكاليف عن الأعناق، ورفعت الأحكام الشرعيّة؛ سواء كانت متعلّقة بالأعمال البدنية الظاهرة، أو الملكات النفسيّة الباطنة، والقيامة عبارة عن قيام القائم الحقّ، وأنا القائم الحقّ، فليعمل عامل ما أراد، فلا حرج بعد اليوم، إذ رُفعت التكاليف، وخَلُصت منها الذمم؛ أي أُغلقت أبواب الإنسانيّة، وفتحت أبواب البهيميّة.

وبالجملة: فهؤلاء الدهريّون من أهل التأويل؛ أي «الناتوراليسم» من الأجيال

---

(١) بعد موت المستنصر بالله الفاطمي عام ٤٨٧ هـ، قام الوزير بدر الجمالي بالدعوة لإمامة المستعلي، الابن الأصغر للمستنصر (وهو ابن اخت الوزير)، وإزاحة ولي العهد الابن الأكبر نزار. وبذلك انشقت الفاطمية إلى نزارية ومستعلية. أما النزارية فقد عرفت التأسيس على يد الحسن الصباح الذي غادر مصر. وعاد إلى الشرق، واستولى على عدد من القلاع في فارس أهمها قلعة الموت في مدينة رودبار واتخذها مركزًا لنشر دعوته وترسيخ أركان دولته. واستطاع هو وأنصاره الانتشار في عدة مناطق من خوزستان إلى نهر جيحون واحتلوا الكثير من القلاع، وتتداول المصادر أنّ «حسن الصباح» في اليوم السابع عشر من رمضان من العام ٥٥٩ هـ ، أمر أن يرفع منبر في فناء «الموت» يواجه الغرب وترفرف على أركانه الأربعة رايات أربع كبيرة بيضاء وحمراء وصفراء وخضراء... وجاء الناس من مختلف الجهات وكان قد استدعاهم من قبل إلى «آلموت»، وتجمعوا في الفناء، فالذين أقبلوا من الشرق لزموا الجانب الأيمن، والذين جاؤوا من الغرب وقفوا على الجانب الأيسر، والذين جاؤوا من الشمال من رودبار والديلم، وقفوا بمواجهة المنبر، ولما كان المنبر يواجه الغرب، لذلك كان ظهور المجتمعين نحو مكة، وتقول نبذة إسماعيلية في وصف ما حدث: «وبعد قرابة الظهر، نزل السيد حسن الصباح على ذكره السلام من القلعة مرتديًا ثوبًا أبيض وعمامة بيضاء، وتقدم نحو المنبر من الجانب الأيمن، وارتقاه في خطى وئيدة، وتوجه بالتحية ثلاث مرات الأولى إلى أهل الديلم ثم إلى الذين على اليمين ثم إلى الذين على اليسار، وظلّ جالسًا برهة ثم وقف مرة أخرى وهو ممسك بسيفه، وتحدث بصوت جهوريّ مخاطبًا سكان العوالم الثلاثة عالم الجن وعالم الإنس وعالم الملائكة، فأعلن أنه قد وصلته رسالة من الإمام المختفي تحمل تعليمات جديدة: تقول: إنّ إمام عصرنا يبعث إليكم تحياته وسلامه ويبلغكم إنّه دعاكم خدمة الخصوصيين المختارين، وإنّه حرركم من أعباء قواعد الشريعة وأحضركم إلى القيامة». (برنار لويس، **الحشاشون فرقة ثورية في الإسلام**، تعريب: محمد العزب موسى (القاهرة: دار مدبولي، الطبعة ٢، ١٩٨٦)، الصفحتان ١٣٥ و١٣٦).



السابقة الإسلاميّة، عملوا على تغيير الأوضاع الإلهيّة بفنون من الحيل، ودعوا كلّ كمال إنسانيّ نقصًا وكلّ فضيلة رذيلة، وخيّلوا للناس صدق ما يزعمون، ثمّ تطاولوا على جانب الأُلوهية، فحلوا عقود الإيمان بها، وبالسفسطة التي سمّوها تنزيهًا، ومحوا هذا الاعتقاد الشريف من لوح القلوب، وفي محوه محو سعادة الإنسان في حياته، وسقوطه في هاوية اليأس والشقاء.

فأفسدوا أخلاق الملّة الإسلامية شرقًا وغربًا، وزعزعوا أركان عقائدها، وساعدهم مدّ الزمان على تلويث النفوس بالأخلاق الرديئة وتجريدها من السجايا الكاملة، التي كان عليها أبناء هذه الملّة الشريفة، حتّى تبدّلت شجاعتهم بالجبن وصلابتهم بالخور، وجرأتهم بالخوف، وصدقهم بالكذب، وأمانتهم بالخيانة، ووقع المسخ في هممهم، فبعد أن كان مرماها مصالح الملّة عامّة، صارت قاصرة على المنافع الشخصيّة الخاصّة، وعادت رغباتهم لا تخرج عن الشهوات البهيميّة، وكان من عاقبة ذلك: أنّ جماعة من قزم الإفرنج، صدعوا أطراف البلاد السوريّة، وسفكوا فيها دماء آلاف من أهاليها الأبرياء، وخرّبوا ما أمكنهم أن يخرّبوا، وثبتوا بها نحو مئتي سنة، والمسلمون في عجز عن مدافعتهم، مع أنّ الإفرنج كانوا قبل عروض الوهن لعقائد المسلمين، وطروء الفساد على أخلاقهم في قلق لا يستقرّ لهم أمن على حياتهم وهم في بلادهم؛ خوفًا من عادية المسلمين. وكذلك قام جماعة من أوباش التتر والمغول مع جنكيزخان، واخترقوا بلاد المسلمين، وهدّموا كثيرًا من المدن المحمّديّة، وأهدروا دماء ملايين من الناس، ولم تكن للمسلمين قدرة على دفع هذا البلاء عن بلادهم، مع أن مجال خيولهم في بدء الإسلام على قلّة عددهم، كان ينتهي الى أسوار الصين.

وما نزل بالمسلمين شيء من هذه المذلاّت والإهانات، ولا رُزِئوا بالتخريب في بلادهم، والفناء في أرواحهم، إلّا بعد ما كلّت بصائرهم ونغلت نيّاتهم، ومازج الدَّغَل[١] قلوبهم، وخربت أماناتهم، وفشا الغشّ والإدهان[٢] بينهم، ودار كلّ منهم حول نفسه لا يعرف أُمّة، ولا ينظر إلى ملّة، وأصبحوا بقناة خوّارة[٣]، بعد أن كانت

---

(١) عيبٌ في الأمر يُفسِدُه.

(٢) الإدهان: الاستسلام.

(٣) الناقةُ الغزيرة اللَّبَن السهلة الدَّرِّ.



قناتهم لا تلين لغامز، إلّا أنّ بقيّة من تلك الأخلاق المحمّديّة، كانت لم تزل راسخة في نفوس كثير منهم، كامنة في طيّ ضمائرهم، فهي التي أنهضتهم من كبوتهم، وحملتهم على الجدّ في كشف السطوة الغريبة عن بلادهم، فأجلوا الأمم الأفرنجيّة بعد مئين من السنين، وخلّصوا البلاد السورية من أيديهم، وطوّقوا الجنكيزيين بطوق الإسلام، وألبسوهم تيجان شرفه، ولكنّهم لم يستطيعوا حسم داء الضعف، وإعادة ما كان لهم من الشوكة إلى المقام الأوّل، فإنّ ما كان من شوكة وقوّة إنّما هو أثر العقائد الحقّة، والصفات المحمودة، فلما خالط الفساد هذه وتلك تعسّر عود السهم إلى النزعة.

ولهذا، ذهب المؤرّخون إلى أنّ بداية الانحطاط في سلطة المسلمين كانت من حرب الصليب، والأليق أن يقال: إنّ ابتداء ضعف المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد النيشريّة «الدهريّة» في صورة الدين، وسريان هذه السموم القاتلة في نفوس أهل الدين الإسلامي.

وليس بخافٍ أنّ فئة ظهرت في الأيّام الأخيرة ببعض البلاد الشرقيّة، وأراقت دماء غزيرة، وفتكت بأرواح عزيزة، تحت اسم لا يبعد عن أسماء من تقدّمها لمثل مشربها، وإنما التقطت شيئًا من نفايات ما ترك دهريّو «الموت» وطبيعيّو «كردكوه» وتعليمها نموذج تعليم أولئك الباطنيّين، فعلينا أن ننظر ما يكون من آثار بدعها في الأُمّة التي ظهرت بها.

[الشعب الفرنسي]

شعب كان قد تفرّد بين الشعوب الأوروبيّة بإحراز النصيب الأوفر من الأُصول الستّة، فرفع منار العلم، وجبر كسر الصناعة في قطعة أوروبا بعد الرومانيّين، وصار بذلك مشرقًا للتمدّن في سائر الممالك الغربيّة.

وبما أحرز الفرنسيّون من تلك الأُصول، كانت لهم الكلمة النافذة في دول الغرب إلى القرن الثامن عشر من الميلاد المسيحي، حتّى ظهر فيهم «فولتير»[١] ....

---

(١) فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨م) واحد من أشهر الكتاب والفلاسفة الفرنسيين. يعتبر كتابه كانديد (١٧٥٩م) أشهر أعماله؛ إذ ترجم إلى أكثر من مئة لغة.



و«روسو»[١]، يزعمان حماية العدل، ومغالبة الظلم، والقيام بإنارة الأفكار، وهداية العقول، فنبشا قبر أبيقور الكلبي، وأحييا ما بلي من عظام «الناتوراليسم» الدهريين، ونبذا كلّ تكليف ديني، وغرسا بزور الإباحة والاشتراك، وزعما أنّ الآداب الإلهية جعليّات خرافيّة، كما زعما أنّ الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنساني، وجهر كلاهما بإنكار الأُلوهيّة، ورفع كلّ عقيرته بالتشنيع على الأنبياء - برّأهم اللّه ممّا قالا - وكثيرًا ما ألّف «فولتير» من الكتب في تخطئة الأنبياء والسخرية بهم، والقدح في أنسابهم، وعيب ما جاؤوا به، فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنساويين، ونالت من عقولهم، فنبذوا الديانة العيسويّة[٢]، ونفضوا منها أيديهم.

وبعد أن أغلقوا أبوابها، فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدّسة - في زعمهم - شريعة الطبيعة، وزاد بهم الهوس في بعض أيّامهم حتى حمل لفيفًا من عامّتهم، أن يتناولوا بنتًا من ذوات الجمال فيهم، ويحملوها إلى محراب الكنيسة، ففعلوا، ونادى زغيم القوم: أيّها الناس لا يأخذكم الفزع بعد اليوم من هدهدة الرعد، ولا التماع البرق، ولا تظنّوا شيئًا من ذلك تهديدًا لكم من إله السماء، يرسله عليكم ليعظكم به، ويزعجكم عن مخالفته. كلّا فهذه كلّها آثار الطبيعة «الناتور»، ولا مؤثّر في الوجود سوى «الناتور»، فحلّوا عن أعناقكم قيود الأوهام، ولا تقيموا لأنفسكم إلهًا من خواطر ظنونكم، فإن كانت العبادة من رغائب شهواتكم، فها هي ذي «مدموازيل» أي العذراء قائمة في المحراب على مثال الدمية، فاسجدوا لها إن شئتم.

والأضاليل التي بثّها هذان الدهريّان «فولتير» و«روسو» هي التي أضرمت نار الثورة الفرنساوية المشهورة، ثمّ فرّقت بعد ذلك أهواء الأُمّة، وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها، فاختلفت فيها المشارب، وتباينت المذاهب، وأوغلوا في سبل

---

(١) جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨م) فيلسوف فرنسي، كان أهم كاتب في عصر العقل. وهو فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة.

(٢) نسبة لسيدنا عيسى عليه السلام.



الخلاف زمنًا يتبعه زمن، حتّى تباين صدعهم، وذهب كلُّ فريق يطلب غاية لا يرى وراءها غاية، وليس بينها وبين غايات سائر الفرق مناسبة، وانحصر سعي كلّ قبيل في التماس ما يواتي لذّته، ويوافق شهوته، وأعرضوا عن منافعهم العامّة، وأعقب ذلك عروض الخلل لسياستهم الخارجيّة شرقًا وغربًا.

نعم إنّ نابليون الأوّل بذل جهده في إعادة الديانة المسيحيّة إلى ذلك الشعب استدراكًا لشأنه، لكنّه لم يستطع محو آثار تلك الأضاليل، فاستمرّ الاختلاف بالفرنساويين إلى الحدّ الذي هم عليه اليوم.

هذا الذي جرّ الفرنسيّين للسقوط في عار الهزيمة، بين يدي الألمان، وجلب إليهم من الخسار ما تعسّر عليهم تعويضه في سنين طويلة. هذه الأباطيل الدهريّة قام عليها مذهب «الكمون» أي الاشتراكيين ونما هذا المذهب بين الفرنساويين، ولم تكن مضارّ الآخذين به ومفاسدهم في البلاد الفرنسيّة أقلّ من مضارّ الجرمانيين[١] (راجع تاريخ الحرب بين فرنسا وألمانيا) ولو لم يتدارك الأمر أرباب العقائد النافعة والسجايا الحسنة، لنسف الاشتراكيون كلّ عمران على أديم فرنسا، ومحوا مجد الأُمّة تنفيذًا لأهوائهم، وجلبًا لرغباتهم.

[الأُمّة العثمانيّة]

إنّما رقّت[٢] حالتها في الأزمنة المتأخّرة بما دبّ في نفوس بعض عظمائها وأمرائها من وساوس الدهريّين، فإنّ القواد الذين اجترحوا إثم الخيانة في الحرب الأخيرة بينها وبين الروسية، كانوا يذهبون مذهب النيشريين «الدهريّين»، وبذلك كانوا يعدّون أنفسهم من أرباب الأفكار الجديدة «أبناء العصر الجديد».

زعموا – بما كسبوا من أوهام الدهريّين –: أنّ الإنسان حيوان كالحيوانات، لا يختلف عنها في أحكامها، وهذه الأخلاق والسجايا، التي عدّوها فضائل، تخالف بجميعها سنن الطبيعة المطلقة «الناتور»، وإنما وضعها تحكّم العقل، وزادها تطرّف الفكر. فعلى من بصر بالحقيقة – على زعم أولئك المارقين – أن يستنتج كلّ طريق

---

(١) الألمان.

(٢) ضعفت.



إلى تحصيل شهواته، واستيفاء لذّاته، ولا يأخذ نفسه بالحرمان من ملاذّه، وقوفًا عند خرافات القيود الواهنة، والموضوعات الإنسانيّة الواهية. وحيث إنّ الفناء حتّم على الأحياء، فما هو الشرف والحياء؟! وما هي الأمانة، والصدق؟! وأيّ شيء هو العفّة والاستقامة..؟! ولهذا خان أولئك الأُمراء ملّتهم مع ما كان لهم من الرتب الجليلة، ورضوا بالدنيّة، واستناموا إلى الخِسّة، ونسفوا بيت الشرف العثماني في تلك الحرب وجلبوا المذلّة على شعوبهم بعرض من الحُطام قليل.

السوسياليست «الاجتماعيّون» والنهيليست «العدميّون» والكمونيست[1] «الاشتراكيون»

هذه الطوائف تتّفق في سلوك هذه الطريقة «الدهرية»، زيّنوا ظواهرهم بدعوى أنّهم سند الضعفاء، والطالبون بحقوق المساكين والفقراء، وكلّ طائفة منها، وإن لوّنت وجه مقصدها بما يوهم مخالفته لمقصد الأُخرى، إلّا أنّ غاية ما يطلبون إنّما هو رفع الامتيازات الإنسانية كافّة، وإباحة الكلّ للكلّ، واشتراك الكلّ في الكلّ.

وكم سفكوا من دماء، وكم هدموا من بناء، وكم خرّبوا من عمران، وكم أثاروا من فتن، وكم أنهروا من فساد، كلّ ذلك سعيًا في الوصول إلى هذه المطالب الخبيثة، وجميعهم على اتّفاق في أنّ جميع المشتهيات الموجودة على سطح الأرض منحة من الطبيعة وفيض من فيوضها، والأحياء في التمتّع بها سواء، واختصاص فرد من الإنسان بشيء منها دون سائر الأفراد، بدعة في شرع الطبيعة سيّئة، يجب محوها والإراحة منها.

ومن مزاعيمهم: أنّ الدين والملك عقبتان عظيمتان، وسدّان منيعان، يعترضان بين أبناء الطبيعة، ونشر شريعتها المقدّسة: الإباحة والاشتراك، وليس من مانع أشدّ منهما، فإذن من الواجب على طلّاب الحقّ الطبيعي، أن ينقضوا هذين الأساسين، ويُبيدوا الملوك ورؤساء الأديان.

ثمّ يعمدون إلى الملّاك وأهل السعة في الرزق، فإن دانوا لشرع الطبيعة،

---

(١) الشيوعيون.



فخرجوا عن الاختصاص، فتلك، وإلّا أخذوا بأعناقهم قتلًا، وبأكظامهم[١] خنقًا؛ حتّى يعتبر بهم من يكون من أمثالهم، فلا يلوون رؤوسهم كبرًا على الشريعة المقدّسة – شريعة الطبيعة – ولا تَزْوَرّ أعناقهم عصيانًا لأحكامها.

نظر أبناء هذه الطوائف في وجوه الوسائل لبثّ أفكارهم، والإفضاء بما في أوهامهم إلى قلوب العامّة، فلم يجدوا وسيلة أنجح في زرع بذور الفساد في النفوس، من وسيلة التعليم؛ إما بإنشاء المدارس تحت ستار نشر المعارف، أو بالدخول في سلك المعلّمين في مدارس غيرهم؛ ليقرّروا أُصولهم في أذهان الأطفال، وهم في طور السذاجة، فتنتقش بها مداركهم بالتدريج.

فمن أُولئك الدهريّين من همّه بناء المدارس، ودعوة الناس إليها، ومنهم متفرّقون في بلاد أوروبا، يطلبون وظائف التعليم، وينالون من ذلك طلبتهم، وجميعهم يتعاونون على إذاعة خيالاتهم الباطلة، وبهذا كثرت أحزابهم، ونمت شيعتهم في أقطار الممالك الأُوروبّيّة، خصوصًا مملكة الروسية.

لا جرم أنّ هذه الطوائف إذا استفحل أمرها، وقوي ساعدها على المجاهرة بأعمالها، فقد تكون سببًا في انقراض النوع البشري، كما تقدّم ذكره. أعاذنا اللّه من شرور أقوالهم وأعمالهم.

[مورمون]

هذا النبي الأخير، والرسول الممتاز بالبعثة من قِبَل الناتور «الطبيعة» نشأ في إنكلترا، ثمّ هاجر منها إلى أمريكا، وأعلن ما أُلقي إليه بإلهام الطبيعة: من أنّ النعمة العظمى – يريد الإباحة والاشتراك – إنّما يؤتاها من كان مؤمنًا بالطبيعة، وليس لغيره من الكَفَرة بها حقّ التمتّع بتلك النعمة، واجتمع إليه عدد من ضعفة العقول، فألّف منهم جمعيّتين: أحداهما من المؤمنين، والأُخرى من المؤمنات، وقال: لكلّ مؤمن حقّ التمتّع بكلّ مؤمنة، حتى كانت إذا سُئلت إحدى المؤمنات: زوجة من أنت؟ تجيب: أنّها زوجة جماعة المؤمنين، وإذا سُئل أحد أبنائهنّ: من أنت؟ أجاب:

---

(١) الكَظَم جمعهُ أكظام وكِظام: مخرج النَّفَس.



أنّه ابن الجمعيّة، إلّا أنّه إلى الآن لم يصعد لهيب فسادهم من هوّة الويل «هوّة جمعيتهم».

دهريّو الشرقيين

أما منكرو الأُلوهية؛ أعني النيشريين الذين ظهروا في لباس المهذبين، ولونوا ظواهرهم بصبغ المحبّة الوطنيّة، وزعموا أنفسهم طلّاب خير الأُمة، فصاروا بذلك شركاء اللُّصّ، ورفقاء القافلة، ثمّ تجلّوا في أعين الأغبياء حَمَلة لأعلام العلم والمعرفة، وبسطوا للخيانة بساطًا جديدًا، وتولّاهم الغرور بما حفظوا من كلمات قليلة ناقصة غير تامّة الإفادة، مسروقة من أوهام المُبْطلين، وفتلوا سبالهم[١] كِبْرًا وعُلُوًّا، ولقّبوا أنفسهم بالهادين والأدلّاء، وهم في أطباق جهل وأرتاق غباوة، وفي أُهُبٍ[٢] من دنس الرذائل، ومسوك[٣] من قَذَر الذمائم، فأُولئك قوم قوي فيهم الظنّ، بأنّ العقل وثمرته من المعرفة، ينحصران في تبيّن وجوه الغدر، وتعرّف طرق الاختلاس. وإنّني لفي خجل من ذكرهم، يدافعني الحياء عن رواية سيرهم، وحكاية أعمالهم، فإنّ مقاصدهم من الدناءة بحيث لا تخرج عن جيوبهم، يسعون في اقتلاع أساس أُمّتهم لشهوة بطونهم، يحدّدون شفارهم[٤] لتقطيع روابط الالتئام بين بني جنسهم، لا يبتغون بذلك عوضًا، سوى حشو مِعَدهم، وما أضيق مجال أفكارهم، إلى الآن لم يخطُ أحدهم خطوة خارج كرشه، ولم يمدّ واحد منهم رجله لأبعد من فرشه، وليس في وسع القلم أن يتحرّك في هذا المجال الضيّق، غير أنّه يمكن أن يقال: إنّهم «بياجوا» لغيرهم من أهل الضلالة - أي سيّئو التقليد لهم - وما بقي من أوصافهم لا يخفى على فهم القارئين.

---

(١) شواربهم.

(٢) جلود.

(٣) جلود.

(٤) الشفرة: السكن العريض.



[الفصل الخامس]

[العقيدة الإلهيّة وموقف الدهريّين منها]

مضار إنكار الأُلوهيّة

تبيّن ممّا أسلفنا: أنّ طائفة النيشريّين «الدهريّين» كلّما نجمت في أُمّة أفسدت أخلاقها، وأوقعت الخلل في عقولها، وتخطّفت قلوب آحادها، بأنواع من الحيل، وألوان من التلبيس، حتى تصبح تلك الأُمة وقد وهي أساسها، وتفطّر بناؤها، واغتالتها رذائل الأخلاق: من الأَثَرة، وعبادة الشهوات، والجرأة على ارتكاب الخيانات، ولا يزال الفساد يتغلغل في أحشائها حتّى تضمحلّ ويُمحى رسمها من صفحة الوجود، أو تضرب عليها الذلّة، ويخلد أبناؤها في الفقر والعبودية.

إلّا أنّ قبيلًا من هذه الطائفة، عملوا على إخفاء مقصدهم الأصلي، وهو الإباحة والاشتراك، واكتفوا في ظاهر الأمر بإنكار الأُلوهيّة وجحود يوم الدين؛ يوم العرض والجزاء، وقد يظنّ بعض ضَعَفة العقول، أنّ في ذلك بسطة الفكر، وسعة الحرية؛ لهذا أحببت أن أُبيّن أنّ هذه النزعة وحدها كافية في إفساد الهيئة الاجتماعيّة، وتزعزع أركان المدنيّة، وليس من ضروب الباطل ما هو أشدّ منها تأثيرًا في محو الفضائل، وإثارة الخبائث والرذائل، وليس من الممكن أن يجتمع لشخص واحد، وهْمُ الدهري، وفضيلة الأمانة والصدق، وشرف الهمّة وكمال الرجولة.

ذلك أنّ كلّ فرد من نوع الإنسان قد أُودع – بحسب فطرته، وبناء بنيته – شهوات تميل به إلى مشتهيات، فشهواته تدفعه إلى تحصيل مشتهياته، ولا يستطيع تسكين هواه، ولا كسر سورة نفسه، إلّا بنيل ما يمكنه من تلك المشتهيات، كأنه يعالج ألم الطلب بما يصل إليه من المطلوب، ولم تحدّد الطبيعة طريقًا معيّنة



يسلكها الراغبون للوصول إلى رغائبهم: فسبيل حقّ، وسبيل باطل، وسبيل الفتنة والفساد، وسبيل الهدى والرشاد، وسبيل سفك الدماء، واغتصاب الحقوق، وسبيل الإجمال والتعفّف، وكلّها ميسّر للطالب غير ممتنع على السالك.

فقصر النفوس على طريقة محدودة وتوقيف هوائها عند حدود معيّنة، ومنعها من تجاوز حدّ الاعتدال في آثارها وأعمالها، وإرضاء كلّ ذي شهوة بحقّه، وكفّه عن الاعتداء والإجحاف بحقوق غيره، هذا كلّه إنّما يكون بأحد أمور أربعة:

الأمور التي يمكن بها إلزام النفس حدود العدل:

[١] إمّا أن يحمل كلّ ذي حقّ آلة حربه، فيخترط سيفه، ويعتقل رمحه، ويرفع ترسه، ويقوم ليله ونهاره، يقدّم إحدى رجليه، ويؤخّر الأُخرى، دفاعًا عن حقّه.

[٢] وإمّا شرف النفس، كما يزعمه أرباب الأهواء.

[٣] وإمّا الحكومة.

[٤] وإمّا الاعتقاد بأنّ لهذا العالم صانعًا قادرًا، محيط العلم، نافذ الحكم، وأنه يوفي كلّ عامل جزاء عمله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[١]؛ ثوابًا جزيلاً، أو عقابًا وبيلاً، في حياة بعد هذه الحياة.

الأول: المدافعة الشخصيّة

أمّا الأوّل: فبِراز وضِراب، ونضال وقتال، وجلاد تسيل به الأودية مُهَجًا، وتخضلّ به الرُّبى دمًا، وتتفانى به النفوس طلبًا للحقوق أو دفاعًا عنها، وتكون الدائرة للأقوياء على الضعفاء، حتى إذا قوي الضعفاء يومًا ما ثاروا على الأقوياء، فلا يزال صاحب القوّة يطحن الضعيف، والأقران يسحق بعضهم بعضًا، إلى أن يعمّ جميعهم الفناء، وينقرض النوع الإنساني من وجه البسيطة.

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و٨.



الثاني: شرف النفس

أمّا الثاني: فتقدّم الكلام فيه ببيان شرف النفس، فهي صفة تنكب بصاحبها عن إتيان ما يذمّ عند قبيلته، وغشيان ما يقبح في أنظار عشيرته، ويقابلها خسّة النفس، وهي صفة لا يتأثّر معها صاحبها من التشنيع، ولا تنفعل نفسه من التقبيح.

فتلك الصفة، أعني شرف النفس، ليست لها حقيقة معيّنة، ولا هي في حدود معروفة عند جميع الأُمم حتى يمكنهم بالمحافظة عليها، أن يقفوا بالشهوات عند حدّ الاعتدال.

ألا ترى أنّ كثيرًا من الأُمور، يعد ارتكابه عند بعض الأُمم خسّة ودناءة، وهو بعينه عند بعض آخر شرف ورفعة يستتبع المدح والثناء، على أنه في الحقيقة شرّ الشرور وأعظم الفجور.

تبيّن ذلك من حال سُكّان البادية وأهل الجبال من القبائل المتبدّية، فإنّهم يعُدّون الغارة والفتك بالأرواح، وانتهاب الأموال، واسترقاق الأحرار من فعال المجد، وبلوغ الغاية منها بلوغ إلى نهاية الشرف، وهذه الفعال بعينها، يعدّها سكان المدن وأهل الحضارة، من لواحق الدناءة، وعلائم خسّة النفس، وكذلك الحيلة والمكر يحسبهما قوم خِسّة وخُبثًا، ويحسبهما آخرون حكمة وعقلًا.

وإذا أمعنت النظر في المسألة، وجدت أنّ لكلّ كائن في عالم الإمكان علّة غائيّة، والعلّة الغائيّة لأعمال الإنسان إنّما هي نفسه، فهو لا يطلب شرف النفس، ولا يسعى للتجمّل به، إلّا لطمعه في توفير رزقه، وتوسيع سبل معيشته، وخوفه من ضيق مسالك العيش عليه، فإنّه يعلم أنّ شرف النفس يردّ إلى صاحبه شوارد القلوب، ويجعله مكان ثقتها، ويظهره في بهاء الصدق والأمانة، فيعظم الركون إليه، وتكثر أعوانه، وفي ذلك توفّر أسباب المعيشة، واتّساع طرقها.

بخلاف من تلتاث[1] نفسه بالخِسّة، فذلك مقذوف القلوب، منبوذ الطباع، لا ينبسط إليه النظر، ولا يحوم عليه الخاطر، فهو قليل الأعوان، عديم الإخوان، ومن كان هذا حاله، سُدّت عليه أبواب الرزق واكتنفته غائلات الفاقة، فيكون ميل

---

(١) تلتف.



الإنسان إلى شرف النفس، ودرجته من القوّة والضعف، وتمكّنه من نفسه، وعدم تمكّنه، ومراتب أثره في كبح الشهوات وردّها عند تخوم العدالة، إنّما هو على حسب أحوال الطبقات في معائشهم؛ بمعنى أنّ كلّ طبقة من الناس تطلب من تلك الصفة ما ينفعها في معيشتها، ويحفظها من طارقة السوء، بل لا ترى كلّ طبقة أنّ شيئًا يُعدّ من الشرف، إلّا تلك الصفة التي تحفظ بها المنزلة، وتصان بها موادّ المعيشة، وما زاد على ذلك فلا يعدّ فقدانه نقصًا، ولا الخُلُوّ عنه انحطاطًا، فلا تسعى لاستحصاله، وإن عدّه قوم آخرون من جوهر الشرف، ومن مقوّمات الكمال.

وإنّ لنا عبرة في أغلب السلاطين والأُمراء، فإنّهم مع أخذهم بمذاهب الشرف، لا يبالون بنقض العهود، وخَفْر الذِّمم[1]، خصوصًا مع من دونهم في السلطان، ومن لا يضارعهم في القوةّ، ولا يأنفون الظلم، ولا ينكرون الغدر، ولا يتجافون مذمّة من تلك المذامّ، ولا يعدّون شيئًا منها خسّة، ولا يحسبونه من غاشيات الدناءة، مع أنّ واحدًا من هذه الفعال، لو صدر من آحاد الرعيّة - بعضهم مع بعض - لعُدّ من دنيّات الفعال، ورُمي فاعله بخسّة النفس وسقوطها عن مراتب الشرف.

ومن هذا الوجه، كان الخلل يعرض لنظام المعيشة؛ حيث إنّ سائر الطبقات لا ينظرون إلى ما يصدر عن أمرائهم ورؤسائهم نظرهم إلى ما يصدر عن آحادهم، فهم يذهبون مذهب التأويل في أعمال الرؤساء والكبراء.

وهكذا حال الطبقات العالية بالنسبة لما دونها - طبقة بعد طبقة - أي إنّ كلّ طبقة عالية تزعم نفسها مصونة من المثالب، محفوظة من الشنائع، ومنزلتها ممّن دونها تَحمِل الأدنين على الإقرار لها بما تزعم.

فلو كان قوام النظام في العالم الإنساني بشرف النفس، لانطلقت أيدي العدوان من الطبقات الرفيعة فيما دونها، وتفتّحت أبواب الشرّ والفساد في وجه هذا النوع الضعيف.

هذا كلّه إذا فرضنا وقوف كلّ طالب لشرف النفس عندما يظنّه شرفًا، لا يخالفه إلى سواه؛ لا خُفْية، ولا جهرة، لكن حيث كان الباعث على التجمّل بهذا

---

(١) خفر الذمم: نقض العهود.



الوصف إنّما هو الرغبة في تحسين المعيشة، والفرار من مضانكها[1]، فقلّما يستوي ظاهر الإنسان وباطنه في هذه الصفة، فهو في معلنات أُموره يسلك سبل الشرف؛ لينال حظّه من ميل القلوب إليه، ثمّ لا يمنعه ذلك من غشيان الخيانة الخفيّة، وغمس يده في قذر العدوان من وراء حجاب التستّر، وبسط كفّه لتناول الرشوة في زوايا المحاكم؛ لأنّ طالب خفض العيش يعرف أنّ هذه الخبائث الخفيّة، تصل به إلى مقصده من السعة على أمن من الاشتهار بصفة الدناءة، وذلك معروف من أحوال المداعين الظاهرين في ثياب الشرف والعفّة، واللّٰه أعلم ماذا يسترون تحت ذيولهم، وما يضمرون دون جيوبهم، وما يختزنون من الأموالِ في زوايا بيوتهم.

فإذن لا يليق بذي عقل أن يجعل شرف النفس ميزانًا للعدل، ولا مكانَ للظنّ بأنّ هذه الصفة تقف بكلٍّ عند حدّه، وترضيه بحقّه، وتكفّ النفوس عن غصب الحقوق، وتدفعها عن الجور، وتمنعها عن الحيْف ما ظهر منه وما بطن.

فإن قال قائل: إنّ حبّ المحمدة ممّا أُشربتْه قلوب البشر، وهو باعث على الاستمساك بشرف النفس لما يستعقبه من حُسن الحمد، فكلّ ذي فِطْرة إنسانيّة يسعى لكسب المحمدة، لابدّ له أن يطلب الغاية من خَلّة الشرف النفسي، وينزّه نفسه عن جميع الرذائل، ويرفعها عن معاطاة الدنايا والخسائس، ويبتعد بها عن مخالج الحيف والعدوان، فنقول في جوابه:

أوّلًا: إذا تعارض موجب المدح والثناء، ومقتضى الشهوات البدنيّة، فقليل من الناس من يختار الأوّل على الثاني، والجمهور الأغلب مغلوب للشهوة، مأسور للّذّة، والنظر في طبقات الناس وأحوالهم على اختلافهم يثبت لنا ذلك.

وثانيًا: أنّ صاغة المدائح، ونساج المحامد، صنف من الناس أشباه إنسان، وأسناخ[2] حيوان، أُولئك المعروفون بالمؤرّخين والشعراء الكاذبين، ولا باعث لهؤلاء على نثر المحامد ونظم القصائد، إلّا نضارة الثَّرْوة في الممدوحين، ورونق الجاه والجلالة في المحمودين؛ من غير نظر إلى مناشىء الجاه، ولا موارد الثروة.

فمناط الحمد إحدى البسطتين، وإن حُفّت بالمظالم، وأُحيطت باللوائم،

---

(١) عيشة ضَنْك: ضيّقة.

(٢) الريح المنتنة .



ولهذا تنبعث نفوس كثير من الناس للوصول إلى هذه المظاهر، فيطلبون الغنى والثروة والجاه والعظمة، ولو كان ذلك من وجوه الغدر، وطرق الحَيْف والظلم؛ لينالوا بذلك حظّهم من اللذائذ البدنيّة، كما يُصيبون سهمهم من المدائح على ألسنة أولئك المدلّسين، وليس بكثير في الناس طلّاب المحمدة الحقّة، اللاقطون لدرر المدائح من باحات الفضائل، وساحات المكارم، المرتادون للحمد بين حدود الحقّ، وأُولئك الحافظون لشرف النفس، وقليل ما هم.

فلم تبقَ ريبة في قصور هذه الخَلّة، أعني شرف النفس، عن الكفاية في تعديل الأخلاق، وتحديد الشهوات، وحجْب العدوان، وحفظ النظام الإنساني، اللهم إلّا أن تكون مستندة إلى عقيدة في دين، وتكون حقيقتها محدودة في ذلك الدين، فعند ذلك تكون دعامة لبناء الشركة الإنسانية، ومعقدًا لروابط الأُلفة، وسببًا لانتظام سلسلة المعاملات؛ لاستنادها على الدين، لا بنفسها مجرّدة، كما مرّت الإشارة إليه في صفة الحياء.

الثالث: الحكومة

وأما الثالث «الحكومة» فليس بخافٍ أنّ قوّة الحكومة إنّما تأتي على كفّ العدوان الظاهر، ورفع الظلم البيّن، أمّا الاختلاس، والزور المموّه، والباطل المزيّن، والفساد الملوّن بصبغ من الصلاح، ونحو ذلك ممّا يرتكبه أرباب الشهوات، فمن أين للحكومة أن تستطيع دفعه، وأن يكون لها الاطّلاع على خفيّات الحيل، وكامنات الدسائس، ومطويّات الخيانة، ومستورات الغدر؛ حتّى تقوم بدفع ضرره؟!

على أنّ الحاكم وأعوانه قد يكونون - بل كثر ما كانوا ويكونون ممّن تملكهم الشهوات، فأيّ وازع يأخذ على أيدي أصحاب السلطة، ويمنعهم من مطاوعة شهواتهم المتسلّطة على عقولهم؟ وأيّ غوث ينقذ ضعفاء الرعايا وذوي المسكنة منهم، من شرّ أُولئك المتسلّطين وحرصهم؟

لا جرم قد يكون الحاكم في خفيّ أمره رئيس السارقين، وفي جليّ حاله قائد الناهبين، وأعوانه آلات يستعملها في الجور، وأدوات يستعين بها على الفساد والشرّ، فيعطّلون من حقوق عباد اللّه، ويهتكون من أعراضهم، ويغنمون من أموالهم، يروون ظمأ شهواتهم بدماء الضعفاء، وينقشون قصورهم بمُهَج الفقراء، وبالجملة: يكون مبلغ سعيهم هلاك العباد، ودمار البلاد.



الرابع: الاعتقاد بالألوهية

إذن لم يبقَ للشهوة قامع، ولا للأهواء رادع، إلّا الأمر الرابع؛ أعني الإيمان بأنّ للعالم صانعًا، عالمًا بمضمرات القلوب، ومطويّات الأنفس، سامي القدرة، واسع الحول والقوة، مع الاعتقاد بأنه قد قدر للخير والشرّ جزاء يوفاه مستحقّه في حياة بعد هذه الحياة.

وفي الحقّ أنّ هاتين العقيدتين وازعان قويّان يكبحان النفس عن الشهوات، ويمنعانها عن العدوان ظاهره وخفيّه، وحاسمان صارمان يمحوان أثر الغدر، ويستأصلان مادّة التدليس، وهما أفضل وسيلة لإحقاق الحقّ والتوقيف عند الحدّ، وهما مجلبة الأمن، ومتنسّم الراحة، وبدون هذين الاعتقادين، لا تقرّر هيئة للاجتماع الإنساني، ولا تلبس المدنيّة سربال الحياة، ولا يستقيم نظام المعاملات، ولا تصفو صلات البشر، من شائبات الغِلّ، وكدورات الغشّ.

فلو خويت القلوب من هاتين العقيدتين، لسكنتها شياطين الرذائل، وسدّت عليها طرق الفضائل، ومن أين لمنكر الجزاء أن يكفّ نفسه عن خيانة، أو يترفّع بها عن كذب، وغدر، وتملّق، ونفاق؟!

وقد تقرّر: أنّ العلّة الغائيّة لأعمال الإنسان، إنّما هي نفسه - كما سبق - فإن لم يؤمن بثواب وعقاب، وحساب وعتاب، في يوم بعد يومه، فما الذي يمنعه عن ذمائم الفعال، خصوصًا إذا تمكّن من إخفاء عمله، وأمن من سوء عاقبته في الدنيا، أو رأى منفعته الحاضرة في ركوب طريق الرذيلة، والعدول عن سنن الفضيلة، وأيّ حامل يحمله على المعاونة والمرادفة، والمرحمة والمروءة، وعلوّ الهمّة، وما يشبه ذلك من الأخلاق التي لا غنى للهيئة الاجتماعيّة عنها؟!

ولئن وجد في أحد الجاحدين شيء من مكارم الأخلاق بمقتضى الغريزة لكان عرضه للفساد، أو كان أبتر ناقصًا، لفقد ما يمدّه من سائر صفات الكمال.

وقد تبيّن: أنّ أوّل تعاليم النيشريّين «الدهريّين» إبطال هذين الاعتقادين: الاعتقاد باللّه، والاعتقاد بالحياة الأبديّة، وهما أساس كلّ دين، وآخر تعاليمهم الإباحة والاشتراك، فهؤلاء القوم هم الساعون في نسف بناء الإنسانيّة، وتذريته



في ذيول السافيات[١]، يطلبون ضعضعة أركان المدنيّة، وفساد الأخلاق البشريّة، ويقوضون بذلك ما رفعه العلم، وشادته المعرفة، فيهلكون الأمم بإطفاء حرارة الغيرة، وإخماد ريح الحميّة.

هؤلاء جراثيم اللؤم والخيانة، وأرومات الرذالة والدناءة، وأحلاس[٢] الخسّة والنذالة، وأعلام الكذب والافتراء، ودعاة الحيوانيّة العجماء، محبّتهم كيد، وصحبتهم صيد، وتودّدهم مكر، ومواصلتهم غدر، وصداقتهم خيانة، ودعواهم للإنسانيّة حِبالة[٣]، ودعوتهم للعلوم شرك ومكيدة.

يخونون الأمانة، ولا يحفظون السرّ، ويبيعون ألصق الناس بهم، بأدنى مشتهياتهم.

عبيد البطون، وأُسراء الشهوات، لا يستنكفون من الدنيّة، إذا أعقبتها عطيّة، ولا يخجلون من الفضيحة، إذا تبعتها رضيخة[٤]، لا علم عندهم بالوقار، ولا إحساس لهم بالعار، ولم يبلغهم عن شرف النفس خبر مخبر، ولا وصل إليهم عن الهمّة عبارة معبّر، أو تفسير مفسّر، الابن فيهم لا يأمن أباه، والبنت لا أمان لها من كليهما.

نعم، أيّ حدّ تقف دونه حركات طبع «الطبيعيين»؟

قد يوجد بين الناس من تغرّه نعومة لمس هذه الأفاعي، وتروقه رَقْطة جلودها، وانتظام الرقْش فيها، فينخدع لهم بما يلتبس عليه من أمرهم فيُصغي لزخرف قولهم، ويظنّ أن هؤلاء القوم من طلّاب التمدّن والأعوان على الاصلاح، أو من الراغبين في بثّ المعارف، أو المنقّبين عن الحقائق، أو يتخيّل أنّ منهم من يكون غوثًا عند الضيق، أو عونًا في الشدّة، أو مخزنًا للأسرار عند الحاجة، فذلك المغرور بمظاهر هذه الطائفة لا محالة يُبكى عليه، ويُضحك منه، فالضحك عجبًا من غروره، والبكاء حزنًا على ضلاله.

فتبيّن ممّا قرّرناه: أنّ الدين وإن انحطّت درجته بين الأديان، ووهي أساسه،

---

(١) سَفَتِ الريحُ الترابَ: ذرّته أو حملته، فهي سافية، وجمعها: سافيات وسوافٍ.

(٢) حِلْس جمعه أحلاس: الملازم الذي لا يبرح، كأنّهم لا يصلحون إلّا للخسّة والنذالة.

(٣) المصيدة.

(٤) الرَّضيخة: العطيّة القليلة، ومثلها الرَّضاخة، ورضخ: أعطى قليلاً.



فهو أفضل من طريقة الدهريّين، وأمسّ بالمدنية، ونظام الجمعيّة الإنسانيّة، وأجمل أثرًا في عقد روابط المعاملات، بل في كلّ شأن يفيد المجتمع الإنساني، وفي كلّ ترقٍّ بشريّ إلى أيّة درجة من درجات السعادة في هذه الحياة الأولى.

ولمّا كان نظام الأكوان، قد بُني على أساس الحكمة، ونظام العالم الإنساني جزء من النظام الكوني، ألهم اللّه نفوس البشر أن تفزع إلى مقاومة أولئك المفسدين «الدهريّين» في أيّ زمان ظهروا، ومدافعة ما يعرض من شرّهم، كما ألهمهم الفزع من الحيوانات المفترسة، والنفرة من الأغذية السامّة، وأنهض حُفّاظ النظام المدني الحقيقي – وهو الدين – لبذل الجهد، وإفراغ الوسع في محو آثارهم، واستئصال ما يغرسون من تعاليمهم.

لا جَرَمَ أنّ مزاج الإنسان الكبير – يعني عموم النوع – بما أودع اللّه فيه من الشعور الفطري – وهو أثر الحكمة الإلهيّة العامّة – يمجّ هؤلاء الخَوَنة، ولا يحتمل وجودهم في باطنه، فيدفعهم كما تُدفع الفضلات من المعدة، أو الذُّنانة[1] من المنخر، أو النخامة من الصدر. لهذا تراهم، وإن حَلُّوا بعض منازل الأرض من زمان بعيد، وأيّدهم بعض النفوس الخبيثة من ذوي الشوكة لأغراض سافلة، إلّا أنّهم لم يثبتوا، ولم يتمّ لهم أمر، بل كان عارض السوء منهم كسحاب الصيف، كلّما ظهر تقشّع، والنظام الحقيقي لنوع الإنسان – وهو الدين – لم يزل مستقرًّا راسخًا، في جميع الأجيال، وعلى أيّ الأحوال.

فلم تبقَ ريبة أنّ الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان، فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهي الحقّ، ولم يخالطه شيء من أباطيل من يزعمونه، ولا يعرفونه، فلا ريب أنّه يكون سببًا في السعادة التامّة والنعيم الكامل، ويذهب بمعتقديه في جواد الكمال الصُّوري والمعنوي، ويصعد بهم إلى ذِروة الفضل الظاهري، والباطني، ويرفع أعلام المدنيّة لطلّابها، بل يفيض على المتمدّنين من دِيَم الكمال العقلي والنفسي ما يظفرهم بسعادة الدارين..

واللّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(١) ذنّ المخاط: سال، الذُّنان: المخاط.

وهـذا آخـر مـا دعـت إليـه الحاجـة؛ مـن المقابلـة بيـن مذهـب الدهريّيـن وبيـن الدين على وجه عامّ، وأثر كلٍّ من الأمرين في بنية الاجتماع الإنساني.



[القسم الثاني]

[الإسلام دين سعادة الإنسان]



دين الإسلام

إذا نظرنا فيما بين أيدينا من الأديان، وجدنا دين الإسلام قد أُقيم على أساس من الحكمة متين[١]، ورفع بناؤه على ركن لسعادة البشر ركين. ذلك أنّ عروج الأمم على معارج الحق الأعلى، وتدرج الشعوب في مدارج العلم الأجل، وصعود الأجيال على مراقي الفضائل وإشراف طوائف على دقائق الحقائق ونيلهم للسعادة الحقيقية في الدارين، كل ذلك مشروط بأمور لا يتم إلا بها.

الأمور التي تتم بها سعادة الأمم

[الأول]

الأول صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام، فإنّ عقيدةً وهميةً لو تدنس بها العقل لقامت حجابًا كثيفًا يحول بينه وبين حقيقة الواقع، ويمنعه من كشف نفس الأمر بل إنّ خرافةً قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله فيسهل عليه قبول كلّ وهم وتصديق كلّ ظن، وهذا مما يوجب بعده عن الكمال ويضرب له دون الحقائق ستارًا لا يُخرق، وفوق ذلك ما تجلبه الأوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة والخوف مما لا يخيف والفزع مما لا يفزع.

---

(١) بدأ خسروشاهي هذا القسم على الشكل التالي: الإسلام يحقّق السعادة البشرية، والدهريّون يهدّمونها ويهدّمون النظام البشري.



ترى الواهم المسكين، يقضي حياته بين رجفة واضطراب، يتطير من طيران الطيور وحركات البهائم، ويضطرب من هبوب الرياح، وينزعج لقصف الرعد والتماع البرق، ويسلك به الوهم طرق الخيفة مما لا أثر له في الإخافة، وبهذا يسجل عليه الحرمان من أغلب أسباب السعادة، ثم يكون ألعوبةً في أيدي المحتالين وصيدًا من حبائل الماكرين والدجالين.

وأول ركن بني عليه الدين الإسلامي صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام، فمن أهم أصوله الاعتقاد بأنّ اللّه متفرد بتصريف الأكوان متوحد في خلق الفواعل والأفعال، وإنّ من الواجب طرح كلّ ظن في إنسان وجماد، علويًا كان أو سفليًا، بأنّ في الكون أثرًا بنفع أو ضرّ أو إعطاء أو منع أو إعزاز أو إذلال، ومن المفروض خلع عقيدة أنّ اللّه جلّ شأنه ظهر أو يظهر بلباس البشر أو حيوان آخر لصلاح أو فساد، أو أنّ تلك الذات المقدسة نالت في بعض أطوارها شديد الآلام وأليم الأسقام لمصلحة أحد من الخلق، فضلًا عما يحف بذلك من خرافات كلّ واحدة منها كافية في إعماء العقول وطمس نورها.

وأغلب الأديان الموجودة لا يخلو من هذه الأوهام، وإن شئت فاضرب بنظرك إلى ديانة «برهما» في الهند، ودين «بوذه» في الصين، ودين «زرادشت» في بقايا الفارسيين، وكثيرًا من أديان أُخر.

الثاني

الأمر الثاني أن تكون نفوس الأمم مستقبلةً وجهة الشرف طامحةً إلى بلوغ الغاية منه، بأن يجد كلّ واحد من نفسه أنّه لائق بأية مرتبة من مراتب الكمال الإنساني ما عدا رتبة النبوّة، فإنّها بمعزل عن المطمع وإنّما يختص اللّه بها من شاء من عباده، ولا يذهب وهم أحد من الأمة إلى أنّه ناقص الفطرة منحط المنزلة فاقد الاستعداد لشيء من الكمال، فإذا أخذت نفوس الناس حظها من هذه الصفة - أعني الإقبال على وجوه الشرف - تسابق كلٌّ مع الآخر في مجالات الفضائل، وتمادت بهم المجاراة إلى محاسن الأعمال، فبلغ كل واحد ما أتى عليه سعيه من عاليات الأمور وشرائف المراتب.

ولو أنّ قومًا أساؤوا الظن بأنفسهم، واعتقدوا أنّ نصيبهم من الفطرة نقص



الاستعداد وخسة المنزلة وأنّ لا سبيل لهم إلى الوقوف في مصاف غيرهم من طبقات الناس، فلا ريب يسقط من هممهم على مقدار ما ظنوا في أنفسهم، وبذلك يتولى النقص أعمالهم، ويملك الخمود عقولهم، فيُحرمون معظم الكمالات البشرية، وينقطعون دون كثير من مقامات الشرف الدنيوية، وتكون جولتهم في دائرة ضنكة محيطها دون ما ظنوا بأنفسهم.

إنّ دين الإسلام فتح أبواب الشرف في وجوه الأنفس، وكشف لها عن غايته، وأثبت لكلّ نفس صريح الحق في أيّ فضيلة، وأنبأ كلّ ذي نطق بوفرة استعداده لأيّ منزل من منازل الكرامة، ومحق امتياز الاجناس وتفاضل الأصناف، وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلي والنفسي لا غير.

فالناس إنّما يتفاضلون بالعقل والفضيلة، وقد لا نجد من الأديان ما يجمع أطراف هذه القاعدة، فلديك دين «برهما» قسّم الناس إلى أربعة أقسام أحدها «برهمن» وثانيها «جهتري» وثالثها «شودر»، وقرر لكلّ منزلة من كمال الفطرة ما لا يجاوزها، فأعلى منازل الكمال للبرهمن ويليها منزلة الجهتري والصنف الرابع أخسها وأدناها في جميع المزايا الإنسانية.

وكان هذا التقسيم سببًا في انحطاط المتدينين بهذا الدين وقصور خطاهم عن الرقي في مدارج المدنية وانحسار أفكارهم دون الوصول إلى ما يطلبه استعدادهم من المعارف الصحيحة والعلوم الحقة، مع أنّهم أقدم الأمم وأسبقها نظرةً في الكون وشؤونه.

ومن الأديان ما يغلب على أمم من البشر، وفي أصول[1] تفضيل شعب خاص على بقية الشعوب، كشعب إسرائيل مثلًا، وكتابه المعروف يخاطب أبناء ذلك الشعب بالكرامة والإجلال، ويذكر غيرهم بالتحقير والإهانة. نعم جاء رؤوساء ذلك الدين وانسلوا من هذا الحكم وأغفل فيما بينهم، حتى كأنه لم يكن من دينهم إلا أن ما سلبوه من الكرامة عن غيرهم انتحلوه لأنفسهم، فارتفع امتياز الجنسية من بين أهل الدين وخلقه امتياز الصنفية، فسمت منزلة الرؤوساء الروحانيين في قلوب

---

(١) الأنسب استخدام: أصوله.



الآخرين بدينهم، حتى صاروا من عقائدهم أن صنفًا من الناس على منزلة القرب من اللّه بحيث لا يرد له اللّه طلبة، ثم هو الحجاب بين اللّه وبين سائر الأصناف لا يقبل اللّه من أحد صرفًا ولا عدلًا، ولا يعتد[١] له بإيمان ولا يغفر له ذنبًا بتوبة حتى يتوسط له أهل طبقة الرئاسة، فعندهم أنّ كلّ نفس وإن بلغت من الكمال ما بلغت ليس فيها ما يؤهلها لعرض ذنوبها على أبواب العفو الإلهيّ، ولا أن ترفع إليه طلب المغفرة لخطيئتها بل لا بد في قبول ذلك منها أن يكون بواسطة الرئيس الديني، ومن آمن باللّه وصدق وأخذ بأحكامه، لا ينظر لإيمانه حتى ينظر إليه الرئيس الديني، ويعتدّه إيمانًا، واستندوا في هذه العقائد على نصوص من كتابهم تفيد أنّ ما يحلونه في الأرض محلول في السماء، وما يعقدونه في الأرض يعقد في السماء، وقد جلبت هذه العقيدة على أهل هذا الدين شقاءً طويلًا، وألقت بهم في جهالة عمياء وذلة خرساء زمنًا مديدًا، حتى ظهر فيهم مجددون، نقضوا ذلك العقد، وخالفوا فيه ما اشتهر من نصوص الكتاب، وقلدوا في ذلك الدين الإسلاميّ، وسموا مذهبهم مذهب الإصلاح ونشروه في ممالك متعددة، فلم يلبث قومهم بعد ذلك أن تكشفت عنهم جهالات، وحلت من أعناقهم ربق، ونهضوا من حضيض ذلة إلى ذروة رفعة، فنطقوا بعدما صمتوا وعلموا بعدما جهلوا وحَكَموا بعدما حُكِموا، وسادوا بعدما سيدوا.

الثالث

الأمر الثالث أن تكون عقائد الأمة، وهي أول رقم ينقش في ألواح نفوسها، مبنيةً على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة، وأن تتحامى عقولهم عن مطالعة الظنون في عقائدها، وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها، فإن معتقِدًا لاحت العقيدة في مخيلته بلا دليل ولا حجة، قد لا يكون موقنًا، فلا يكون مؤمنًا.

هذا، والآخذ في عقائده بالظن، ينصبّ عقله على متابعة الظنون والقانع بأن آباءه كانوا على مثل عقيدته فأولى به أن يكون عليها، يلتقي مع سابقه في مضارب

---

(١) يورد خسروشاهي: كذا، والمناسب: ولا يُعتدّ له بعمل صالح.



الوهم ولجاج[١] الظن، وأولئك المتبعون للظن، القائمون بالتقليد، تقف بهم عقولهم عند ما تعودت إدراكه، فلا يذهبون مذاهب الفكر ولا يسلكون طرائق النظر، وإذا استمر بهم ذلك تغشاهم الغباوة بالتدريج، ثم تكاثفت عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفهما العقلية بالمرة، فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر، فيحيط بهم الشقاء، ويتعثر بهم البخت، وبئس المآل مآلهم.

فإن كان لا بد من الاستئناس لما نقول بقول أوروبي، فهذا «كيزو» الفرنساوي صاحب تاريخ «سيفليزاسيون» أي التمدن الأوروبي، قال: إنّ من أشد الأسباب أثرًا في سوق أوروبا إلى تمدنها ظهور طائفة في تلك البلاد قالت إنّ لنا حقًا في البحث عن أصول عقائدنا، وطلب البرهان عليها، ولو كان ديننا هو الدين المسيحي، وعارضها كثير من رؤساء الدين ومنعوها ما ادعت من الحق محتجين عليه بأن بناء الدين على التقليد، فلما أخذت تلك الطائفة قوتها وانتشرت أفكارها، نصلت عقول الأوروبيين من علة الغباوة والبلادة، ثم تحركت في مداراتها الفكرية، وترددت في المجالات العلمية، وكدحت لاستحصال أسباب المدنية.

إنّ الدين الإسلاميّ يكاد يكون متفردًا من بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون وتبكيت الخابطين في عشواء العماية والقدح في سيرتهم، هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وكلما خاطب خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم إلى العقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة وأنّ الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة، ويرفع أركان الحجة لأصول من العقائد كلّ منها ينفع العامة ويفيد الخاصة، وكلما جاء بحكم شرعيّ اتبعه ببيان الغاية منه في الأغلب[٢].

وقلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقاربه في هذه المزية، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة.

ومن الأديان الظاهرة ما بنى أعظم أركانه على أصل الكثرة في الواحد أو

---

(١) أورد خسروشاهي: فجاج بدل لجاج، والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسع بين جبلين.

(٢) راجع القرآن الكريم (المترجم).



الوحدة في الكثير، وأنّ الواحد يكون أكثر، والكثير يكون واحدًا، مما تنبذه بداهة العقل، فلما أنكر العقل، أصل هذا أجمع أهل الدين على أنّه فوق نظر العقل، فلا ينال الفكر دركه لا بالكنه ولا بالوجه، ولا يهتدي لدليل عليه، ولا مرشد إليه، يريدون أنّه لا بد من تنكب طريق العقل ونبذ أحكامه حتى يحكم الإيمان بهذا الأصل، مع أنّ العقل مشرق الإيمان، فمن تحول عنه فقد دابر الإيمان، وأنّ فرقًا بين ما لا يصل العقل إلى كنهه لكنّه يعرفه بأثره، وبين ما يحكم العقل باستحالته، فالأول معروف عند العقل، يقرّ بوجوده، ويقف دون سرادقات عزته، أما الثاني فمطروح من نظره، ساقط من اعتباره، لا يتعلق به عقد من عقوده، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه.

أما أصول دين «برهما» فمن البين لكلّ ناظر فيها أنّ أغلبها مخالف لصريح العقل، وذلك من جليات المسائل سواء اعترف أهل هذا الدين بثبوته أو كابروا بإنكاره.

الأمر الرابع

الرابع أن يكون في كلّ أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة، لا ينون في تنوير عقولهم بالمعارف الحقة، وتحليتها بالعلوم الضافية، ولا يألون جهدًا في تبيين طرق السعادة لهم والسلوك بهم في جوادها، ثم طائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها وتثقيف أودها[1]، وتكشف عن الأوصاف الفاضلة وحدودها، وتمثل للمدارك فوائدها ومحاسن غاياتها، وتفضح مستور الرذائل، وتشق الحجاب عن مضارها وسوء منقلب المتدنسين بها، وتشتد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تلهيها عنهما غفلة، ولا تردها عنهما صعوبة. وذلك أنّ بداهة العقل حاكمة بأنّ جلّ المعارف البشرية والعقائد الدينية مكتسبة، فإن لم يكن في الناس معلم، قصرت العقول عن درك ما ينبغي لها دركه، وانقطعت دون الكفاية بما يلزم لسدّ ضرورات الحياة الأولى، والاستعداد لما يكون في الأخرى، وساوى الإنسان في معيشته سائر الحيوانات، وحُرم سعادة الدارين، وفارق هذه الدنيا على أتعس الأحوال.

---

(١) أي تقويم اعوجاجها.



فإذن من الواجب الديني إقامة معلّم. والشهوات النفسية ليس لها من ذاتها حد تقف عنده، ولا لرغائب الأنفس غاية تنقطع عندها، فإن فُقِدَ من بين الناس مقوم النفوس ومعدل الأخلاق، طغى سلطان الشهوة، واندفع إلى الحيف والإجحاف، ومن طغت بهم شهوتهم، سلبوا راحة غيرهم، وهتكوا ستر أمتهم، ثم هم لا ينفلتون من غائلة أعمالهم، بل يحترقون بنيران شهواتهم، فيرافقون الدنيا على عناء، ويفارقونها إلى شقاء.

فإذن لا بد من الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، القائم بتقويم الأخلاق، وإن من أهم الأركان الدينية في الديانة الإسلامية هاتين الفريضتين: نصب المعلّم ليؤدي عمل التعليم، وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، راجع القرآن الشريف: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١]، وغير هذه الآية آيات كثيرة: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٢]، وقد برز دين الإسلام على غالب الأديان في العناية بهذين الأمرين[٣].

وحيث كانت أركان الدين الإسلامي بالغةً حدّ الكثرة، فلو أخذت في بيان ما يفيده كلّ ركن منها في تقويم المدنية، وتشييد بناء النظام الإنسانيّ وإقامة الدليل على أنّ كلّ أصل من أصول هذا الدين عنصر لحياة السعادة الإنسانية، لخرجت عن القصد من هذه الرسالة.

ولهذا أخذت على نفسي أن أضع رسالةً تختص بذلك الغرض أبين فيها أنّ المدينة الفاضلة التي مات الحكماء على حسرة من فقدها لا تُختط في العالم الإنساني إلا بالدين الإسلامي.

فإن قال قائل إن كانت الديانة الإسلامية على ما بيّنتَ، فما بال المسلمين

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٠٤.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ١٢٢.

(٣) توقف نص خسوشاهي عند هذه النقطة، وهو ما يتعارض مع نص محمد عبده.



على ما نرى من الحال السيئة والشأن المحزن، فجوابه أنّ المسلمين كانوا كما كانوا وبلغوا بدينهم ما بلغوا، والعالم يشهد بفضلهم، وأكتفي الآن من القول بهذا النص الشريف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

وهذا آخر ما أردت بيانه في هذه الرسالة، ينتهي به ما أجملته في كشف سوآت النيشريين «الدهريين»، ومضار طريقتهم في المدنية والهيئة الاجتماعية الإنسانية، وتوضيح الأدلة على منفعة الأديان ولزومها لقيام النظام البشري خصوصًا على دين الإسلام، وإلى الله المنتهى ورضاه المبتغى، والصلاة والسلام على خاتم رسله وآله وصحبه وسلم.

---

(١) سورة **الرعد**، الآية ١١.

رسالة
الرد على الدهريين

هذا الكتاب تحقيق لرسالة الردّ على الدهريين للسيد جمال الدين الأفغاني، وهو من الكتب المهمّة، التي صدرت في نهاية القرن التاسع عشر، حين أخذت الدول الاستعمارية الكبرى ببثّ الأفكار الداعية إلى تغيير نمط الحياة في العالم الإسلاميّ، وتبنّي المقولات الغربيّة حول الثقافة والسياسة والاقتصاد والاجتماع، وقد اتكأت في ذلك على مجموعة من المقولات التي تشكّك الإنسان في قدرة الدين على الإجابة عن الأسئلة التي ينتجها العلم، فانبرى هذا الفيلسوف الإسلاميّ الكبير للردّ عليها وتهفيت محتواها، مظهرًا أنّ ما يساق لا يتعدّى كونه كلامًا في السياسة تَملّق الفكر واستخدمه من أجل تحقيق أهداف أخرى.

والرسالة، على الرغم مما تعرضت له من إشكالات وانتقادات، لا يمكن إنكار كونها عملًا إبداعيًا على أكثر من صعيد، فهي أولًا تعالج في عدد قليل من الصفحات واحدةً من أعوص إشكالات عصرها، كما وتشكل ثانيًا رصدًا مبكرًا لمسألة الغزو الثقافي، وما تحمله في طياتها من عملية تدمير ممنهجة لهوية الشعوب، وتقدم ثالثًا محتوًى قيّمًا يرصد فيه الكاتب الواقع ويحاوره، فنرى كيفية تفاعل مثقف ثوري ملتزم بقضايا أمته مع الأحداث التي تعترض سبيلها.


ISBN 978-614-440-088-3

